

التنظيم العسكري عند العرب المسلمين فترة النشأة والتكوين

د . أحمد بدر

رئيس قسم التاريخ - جامعة دمشق

يرتبط انشاء الجيش المنظم بوجود الدولة ، أي ما افتقده العرب البدو قبل الاسلام ، لذلك لم يكن لهم جيش بالمعنى الدقيق للكلمة ، رغم ان حياتهم كادت تكون حرباً دائمة ، وقدراتهم القتالية واقدامهم في الحرب جعلت منهم محاربين مثاليين الى الحد الذي دفع ابن خلدون كي يجعل من انتصارهم في الحروب التي يواجهون فيها الحضر قاعدة مطردة وقانوناً عاماً يتجاوز مجتمعاً معيناً وعصراً محدداً . اما العرب المتحضرون الذين اقاموا ، دولاً ، كدول اليمن وتدمر والانباط ، فكانت لهم جيوشهم المنظمة التي خاضت حروباً هجومية او دفاعية معروفة ومشهورة شهرة مستفيضة .

وتقدم لنا القبائل التي تنتقل الى مرحلة التحضر وانشاء الدول نموذجاً لكيفية التدرج في ارتقاء التنظيم العسكري والتلازم بينه وبين درجة التحضر وكذلك انسجامه مع الشكل العام للسلطة في هذه المجتمعات . وهكذا ظهر لدى القرشيين المتحضرين في مكة نظام عسكري قائم على مهام متعددة وزعت على البطون ، شأنه في ذلك شأن تنظيماتهم الأخرى . اشتهر من هذه المهام القيادة وهي امارة الركب ، التي يقود صاحبها الركب في خروجهم للقتال او للتجارة وكانت لبني أمية . وفي الحرب كانت لهم رايتهم العامة المسماة بالعقاب ، واسندت مهمة نشرها لبني عبد الدار . كذلك كانت قيادة الخيل في المعركة مهمة خاصة يدعونها « الأعنة » ، ومثلها « القبعة » فكانوا اذا خرجوا للحرب ضربوا خيمة كبيرة يجمعون فيها ما يجهزون الجيش به ، وتشبه ما يسمى في عصرنا الحاضر بالمهمات الحربية ، وظهر لدى الفساسنة والمناذرة تنظيم اكثر تمقيداً ، اذ اشتهرت عند آل جفنة كتيبتا اللحاء والشهباء ، بينما برزت لدى المناذرة الأكثر تحضراً اسماء خمس كتائب ، كان احد ملوكهم يغزو بها ويوجهها

وهي : الشهباء التي تضم اخوته وبني عمه ومن معهم من اعوانهم وعبيدهم ، وقد سميت بذلك لبياض وجوههم ، واياهم عنى الاعشى بقوله « وبني المنذر الاشاهب » . اما الرهائن فرهائن العرب ، ودوسر اشتهرت بشدة بطشها حتى اصبحت مضرب المثل فيقال : ابطش من دوسر . واما الصنائع فبنو قيس وتيم اللات ، واما الوضائع فالف رجل من الفرس وجههم كسرى اعواناً فكانوا يقيمون سنة وينصرفون ليحل غيرهم محلهم .

الاساس الايديولوجي للحرب - الجهاد :

ظهر الاسلام كدعوة للايمان بما جاء من عند الله ، وبلغها رسوله الكريم ، ثم اضحى بعد الهجرة دولة مختلفة عن كل الدول التي قامت من قبل . فدولة الاسلام لم تكن دولة قبيلة او مملكة تخضع لأمر الشيخ او نزوات الملك ، وانما تعمل بأوامر الله التي يبلغها رسوله ، كذلك تكون مجتمع هذه الدولة من مجتمع لا تربط بين افراده طاعة الملك او رابطة الدم المتمثلة بالنسب والقرابة ، وانما رابطة الايمان ، وانعكس ذلك على طبيعة الحرب التي تخوضها وهدفها ، فلم تعد غزواً للآخرين بغاية الفينة والكسب كما هي الحال في حروب القبيلة ، كما لم تهدف الى توسيع الملك وتضخيم السلطان والاستزادة من الثروة والمال ، وانما حرباً لخدمة الدعوة وفي مصلحتها ، للدفاع عن معتنقيها وتأمين حرية انتشارها وسعياً لتطبيق شريعتها ، وهذه الحرب هي الجهاد وهو الشكل الوحيد من الحروب الجائرة ، اما ما عداها فهي حروب بغي وعدوان . وقد عبر ابن خلدون عن هذه الافكار بقوله « اعلم ان الحروب وانواع المقاتلة لم تنزل واقعة في الخليقة منذ براها الله واصلها ارادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها اهل عصبيته فاذا تدامروا ... كانت الحرب ، وهو امر طبيعي في البشر لا تخلو عنه امة ولا جيل وسبب هذا الانتقام في الأكثر اما غيرة ومنافسة واما عدوان واما غضب لله ولدينه واما غضب للملك وسعي في تمهيده . فالاول اكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة . والثاني وهو العدوان اكثر ما يكون من الامم الوحشية الساكنين بالقفز كالعرب والترك والتركماني والاكراد واشباههم لانهم جعلوا ارزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم ... والثالث هو المسمى في الشريعة بالجهاد والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والممانعين لطاعتها . فهذه اربعة اصناف من الحروب الصنفان الاولان منها حروب بغي وفتنة والصنفان الاخيران حروب جهاد وعدل » .

تعني كلمة الجهاد لغوياً الجهد الموجه نحو هدف معين ، اما في الاصطلاح فتطلق على معنيين ، الاول مرادف للمجاهدة اي الجهد الموجه نحو الذات يهدف

الوصول الى الكمال خلقياً ودينياً . ويسمى بعض المفكرين المسلمين المجاهدة باسم الجهاد الروحي أو الاكبر ، مقابل المعنى الثاني للجهاد وهو المعنى الحربي الذي يسمونه الجهاد الجسدي أو الاصغر ، ومع ذلك فان الاستخدام الاكثر شيوعاً وعمومية هو الجهاد بمعنى محاربة اعداء الدين ، وهذا المعنى الاخير هو البارز والظاهر بشكل اوضح في الفترة الاولى التي نتحدث عنها . وقد نظمت الشريعة هذه العملية من نواح متعددة ؛ امراً بها وتوجيهها وغايتها ، وهكذا كانت الآيات القرآنية التي تنزل على الرسول حسب مقتضى الحال تتوالي وتحتوي في جملة ما تحتوي عليه ، هذا الشكل من الجهاد في قتال ومحاربة اعداء الدين منذ الهجرة الى ما قبيل وفاة الرسول الكريم ؛ بدأت بآيات من سورة الحج وانتهت بآيات من سورة براءة ، ويتجلى فيها تطور متناسب مع اوضاع المسلمين خلال هذه الفترة ، اذ يتجلى الطابع الدفاعي عند ما كان المسلمون ضعفاء والهجومى عندما اصبحوا اقوياء ، وهكذا يرد في سورة الحج « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز » . وتدل آيات أخرى على ان الحرب حالة طارئة على الوضع الاساسي وهو السلم ، ولا تنبغي مباشرتها الا باذن ، ويخوضها المؤمن دفاعاً عن النفس والديار والعقيدة . وتظهر القاعدة نفسها في الرد بالمثل سواء عند التجاوز على حرمة الحياة والنفس أو حرمة الاماكن المقدسة ، كما يظهر ذلك في آيات من سورة البقرة « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » واقتلوهم حيث تقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم والفتنة اشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلونكم فيه . . . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين » .

بعد الانتصارات المدوية التي احرزها المسلمون مثل فتح مكة وبسط السيادة على الجزيرة العربية وتطلعهم لنشر الدين الاسلامي خارجها بتأمين حرية الدعوة له ، اصبح التشريع بدفعهم للهجوم كما يظهر ببعض آيات سورة التوبة التي تشير الى ضرورة العمل ضد المشركين مثل الآية ٣٨ « يا ايها الذين آمنوا ان المشركين نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا . . . » ثم

تنتقل للأمر بقتالهم حيث كانوا (الآية ٢٩) « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » وترد في الآيات مبررات ذلك مبرزة التناقضات في العقيدة بين المسلمين وبينهم واشراكهم بالله وكذلك ظلم كهنتهم الاجتماعي ووقوفهم في وجه الاسلام « يا ايها الذين آمنوا ان كثيراً من الأخبار والرهبان ليأكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم » . وفي الآية ٣٣ « يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون » . وتجعل الآية (٣٦) حكم غير المسلمين واحداً على اختلاف معتقداتهم ودياناتهم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين » . وهناك اتجاه آخر يحاول ان يجعل الأمر بمحاربة أهل الكتاب غير مطلق ولا يخص جميعهم ، اذ يرد في الآية « من الذين اتوا الكتاب ... » ومن هذه للتبعض تدل على البعض الذي بغى واعتدى بدليل الآيتين السابقتين . وقد نزلت هذه الآيات في اجواء التوجه لقتال الجماعات والقبائل التي تصدت لقوافل المسلمين في الشمال وتجمع بعض القبائل لغزو المدينة ، وكذلك قتل مبعوث رسول الله الحارث بن عمرو الى ملك غسان كما قتل فروة الجذامي وهو عامل من عمال الروم اسلم (٤) . ومن ناحية اخرى فقد استثنت الآيات من القتال المشركين المرتبطين بعهد مع المسلمين كما ورد في الآية ٤ « الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقضوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم احداً » .

وقد اعتبر الجهاد بالمعنى الحربي فرضاً استناداً للآية الكريمة (٢١٦ سورة البقرة) « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ...) لكنه فرض مختلف عن غيره من الفروض الدينية الاخرى لكونه فرضاً على الجماعة لا على الفرد كالصلاة . فاختلف المجتهدون والفقهاء حول صفته ، هل هو فرض عين ام فرض كفاية ؟ واعتبرته الغالبية فرض كفاية استناداً الى الآية ١٢٢ من سورة التوبة « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » والآية ٩٤ من سورة النساء التي يرد فيها ما ينص على أجر الطرفين القائم بالجهاد والقاعد عن ضرورة « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير اولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وانفسهم وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجراً عظيماً » . كما ان افعال الرسول الكريم وأعماله تفيد ذلك فلم يخرج قط للجهاد الا وترك في المدينة بعض الناس كما يروى عن انس قوله « كان النبي (ص) في غزاة فقال ان اقواماً بالمدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً الا وهم معنا فيه حبسهم العذر » (٥) .

ولم يلبث الفقهاء ان قاسوا على الاحكام الواردة في القرآن الكريم والحديث في القضايا المستجدة وتحديد ما بدا من الاحكام عاما بالنسبة لها ، ومن ذلك ما يتعلق بقضية كون الجهاد فرض كفاية اذا قام به البعض سقط عن البعض الآخر ، فمن هو هذا البعض الذي يقوم به ؟ وما هو المعيار الذي يحدد هذا البعض ؟ فربطت الغالبية بين هذه البعض وتحقيق الفاية فقالت انه كل من يلزم لتحقيقها وهكذا تتوسع حدود البعض أو تضيق تبعاً لوضع الحرب ، حتى انها تشمل الجماعة كلها في حالة مدينة محاصرة او جماعات مقيمة على الحدود وبالتالي تجعل الفارق يتلاشى بين فرض العين وفرض الكفاية .

تبقى الى جانب آراء الاغلبية هذه آراء متباينة لجماعات متميزة ضمن اطار المسلمين كالخوارج الذين يجعلون الجهاد فرض عين ، وقامت في الطرف الآخر والجانب المعاكس جماعات تجعله فرض كفاية وفي حدود دنيا . وربما تأثر هؤلاء بالجو المحيط من فقدان عملية محاربة اعداء الاسلام لشيء من عنصرها الروحي لحساب الميل الى جمع الفنائم ، وكذلك لاستقرار المجتمع النسبي وانغماس قطاعات واسعة منه في الفعاليات الاقتصادية ، وهكذا ينسب لعطاء المتوفى سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ - ٣٣ م رأي يشدد على ضرورة التمسك بتحريم القتال في الشهور الاربعة الحرام . كما ينسب لسفيان الثوري المولود سنة ٩٧ هـ / ٧١٥ رأي يقول بأن الجهاد فرض في حالة الدفاع فقط ، الا انه في حالات الهجوم مندوب ، وفي وقت متأخر اكثر تبني الجاحظ رأي سفيان الثوري هذا ، كما ان عبد الله بن الحسن يرى ان الجهاد مجرد تطوع (١) .

مهما يكن من امر موقع الجهاد بين الفروض الدينية فان كلا من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية تحض المسلمين عليه وتعد القائمين به بالاجر والثواب والمتخلفين والقاعدين عنه بالعقاب والعذاب ، فعندما دعا الرسول (ص) الناس لغزوة تبوك وتناقلوا لما هم فيه من عسر وشدة وحر تنزلت الآيات التي تحض على هذا الأمر ومنها ، الآية ٣٨ من سورة التوبة « يا ايها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله انا قلتم الى الارض ارضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل » وفي الآية التالية يأتي الوعيد « الا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضره شيئاً ان الله على كل شيء قدير » .

اما ثواب المقاتلين فقد نصت على جوانبه آيات كثيرة ، فهم الاعلون ولهم الرحمة ونصيبهم الجنة مقابل ما يبذلون ومن الامثلة عليها، الآية الكريمة (٢٠ و٢١) من سورة التوبة « الذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله بأموالهم وانفسهم اعظم

درجة عند الله وأولئك هم الفائزون» «يشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم» . والآية ١١١ « أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » . واستثنت الآيات من هذه الأوامر أولئك القاعدين والمتخلفين لسبب قاهر عددت الآيتان ٩١ - ٩٢ من سورة التوبة أنواعه بالقول « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ما آتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً لا يجدوا ما ينفقون » . وعلى ذلك نصت الآية ١٧ من سورة الفتح « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج » .

وتأتي الأحاديث النبوية لتصور جوانب أخرى مما يحيق بالقاعد والمتخلف من عقاب وما ينتظر المجاهد والمستشهد من صور الأجر وأشكال الثواب مثل الحديث الذي رواه مسلم وأبو داود والنسائي قوله (ص) « من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق » بينما تجب الجنة لمن قاتل ولو قليلاً وذلك في قوله : « أغزوا في سبيل الله فمن قاتل في سبيل الله فواقة ناقة وجبت له الجنة » كما أن خطاياهم تغفر « قال رجل يا رسول الله أرايت أن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي . فقال : نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر » . ويصل الشهيد إلى مرتبة الشفاعة كما في قوله (ص) « يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته » .

من ناحية أخرى تحض الآيات القرآنية على الثبات في الحرب والتعاضد والطاعة « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا أن الله مع الصابرين » (آية ٤٥ و ٤٦ من سورة الأنفال) ، كذلك وصفت الآية (١٥ من سورة الحجرات) الطريقة المثلى للتقدم للحرب « أن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » وتجعل جهنم وبئس المصير لمن يهزم في الحرب كالآيتين (١٥ - ١٧) « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

ومن ناحية أخرى احتوت الآيات القرآنية ما اتخذته الفقهاء تحديداً للثبات واعتباره غير مطلق « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال أن يكن منكم عشرون

صابرون يغلّبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلّبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » فبنى عليها ان على المسلم ان يقف لعشرة من الكفرة ، ثم خفف هذا الحد الى اثنين في الآية « الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفاً فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله والله مع الصابرين » وهكذا يكون على المسلم الا ينهزم امام مثليه من الاعداء . لكن تطور القتال وتباين قوة الاسلحة وفعاليتها جعل الفقهاء يوجهون انظارهم نحو عناصر اخرى غير العدد لوضع حدود للثبات . وهكذا ذهب الماجشون الذي اعتمد على قول لمالك ابن انس « ان الضعف انما يعتبر في القوة لافي العدد ، وانه يجوز ان يقر الواحد عن واحد اذا كان اعتق جواداً منه واجود سلاحاً واشد قوة » .

من ناحية اخرى حددت الآيات القرآنية والاحاديث ما هو جائز وما هو محرم من النكاية والاذى الذي يلحق بالعدو ، والذي يمكن تصنيفه الى ما يمكن ان يقع في الاموال والاملاك او في النفوس والرقاب . اما في النفوس والرقاب فتقول اية كريمة « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » ، وعند الاسر يمكن ان يقتل او يقتدى او يمن عليه اسوة بما فعل الرسول الكريم ، ويستثنى من الاستعباد والقتل الرهبان لقول الرسول الكريم « فذرهم وما حبسوا انفسهم له » كما يروى ان الرسول لم يستعبد احرار ذكور العرب . وهناك رأي آخر لا يرى ان امر الله وسنة الرسول ورد فيها شيء عام هو المذكور ، وورد الى جانبه ما يخصه ضرب الرقاب العامة تخصصها آية اخرى هي « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » وبالتالي فهي تستثنى غير المقاتلين ، ويدعمون رأيهم بما اثر عن نهي الرسول الكريم عن قتل اصحاب الصوامع والعاجزين والاطفال والنساء وهي اصناف غير مقاتلة ، فقد روى ابن عباس قول الرسول عند بعث جيوشه « لا تقتلوا اصحاب الصوامع » وروى انس ابن مالك « لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة ولا تفلوا » . ويلحق بهؤلاء المستخدمون او الاجراء (العسقاء) والفلاحين ، فقد روى رباح بن ربيعة « انه خرج مع رسول الله (ص) في غزوة غزاها فمر رباح واصحاب رسول الله (ص) على امرأة مقتولة فوقف رسول الله (ص) عليها ثم قال : ما كانت هذه لتقاتل ، ثم نظر في وجوه القوم فقال لاحدهم « الحق بخالد بن الوليد فلا يقتلن ذرية ولا عسيفاً ولا امرأة » وطبق عمر الشيء نفسه اذ روى عن زيد بن وهب قال « اتانا كتاب عمر رضي الله عنه وفيه لاتفلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليداً واتقوا الله في الفلاحين » (٨) .

وفي مجال النكاية في الاملاك اباح الرسول الكريم ائتلاف ما يقوي الاعداء ، فقد قطع كروم اهل الطائف وكان ذلك احد اسباب استسلامهم ، وأمر في حرب النضير بقطع نخيلهم ونزلت الآية مؤيدة لفعله « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على اصولها فباذن الله وليخزي الفاسقين » . وقد قاس الفقهاء فيما بعد على ذلك واباحوا ائتلاف اشياء اخرى تؤدي الى اضعاف الاعداء كتغوير المياه عليهم أو قطعها (٩) .

انهاء الحرب :

ورد في القرآن الكريم آيات تجعل الحرب ضد الكفار مستمرة لا تنتهي الا باسلامهم او دفعهم الجزية كما في الآية (٥) من سورة التوبة « فاذا انسלخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم » وفي الآية (١٦) « فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين » . واذا لم يسلموا « حتى يؤتوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . لكن الآية (٦٥) من سورة الانفال تجعل بالامكان انهاء الحرب بالسلم والمودعة اذ تقول « ان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه السميع العليم » وتسير السنة النبوية على النهج نفسه ، اذ كان الرسول الكريم يطلب من قواد سراياه ان يخبروا العدو بين ثلاث الاسلام او الجزية او الحرب ، لكنه وادع المشركين في صلح الحديبية . وقد اختلف الفقهاء بعد ذلك حول جواز مهادنة او مسالمة اعداء الاسلام ، وقد اعتبر الشافعي الآيات التي تدعو الى الجهاد ضد اعداء المسلمين حتى اخذ الجزية او الاسلام ناسخة لآيات سورة الانفال التي تحجز الصلح ، اما الاحتجاج بفعل الرسول في الحديبية فيصح على المهادنة الموقته لا المسالمة ويجب الا يتجاوز امد هذه المهادنة مدة استمرار مودعة الحديبية . وقد شهد عصر الرسول والخلفاء الراشدين تطبيق هذه المودعة مع جماعات مقابل شيء يدفعونه للمسلمين دون خضوع لهم مثل مودعة الرسول الكريم لاهل نجران (١٠) . ومودعة المسلمين في خلافة عثمان اهل النوبة عندما سألوا عبد الله بن سعد بن ابي سرح الصلح والمودعة « فأجابهم الى ذلك على غير جزية لكن على هدية ثلاثمائة رأس كل سنة وعلى ان يهدي المسلمون اليهم طعاماً بقدر ذلك » ووجد في عهد معاوية نموذج آخر عندما اعترف باستقلال امراء ارمينيا وفي حكم بلادهم حسب قوانينهم مقابل دفع كمية من المال والعين . وبناء على ما تقدم قسم الفقهاء العالم كله الى ثلاثة مناطق : ديار الاسلام حيث تسود

احكام الشريعة الاسلامية ويكون الحكم للمسلمين دون ان يعني ذلك كون المجتمع مسلماً بكامل افرادة لوجود اتباع لديانات اخرى ايضاً ضمن صفوفه . ومقابل هذه الديار توجد دار الحرب التي لا سيادة للمسلمين عليها ، وبينهما تقع دار العهد التي لا تطبق فيها احكام الشريعة ولها استقلالها وليس عليها للمسلمين سوى سيادة غير مباشرة يعبر عنها بدفع كميات من المال او العين تقوم مقام الجزية .

الجيش

عناصر الجيش :

كونت نواته تلك المجموعات الصغيرة المعروفة بالسرايا التي كان يرسلها الرسول الكريم قبل موقعة بدر للاغارة على قوافل القرشيين ، وكانت كلها من المهاجرين ، لان بيعة اهل المدينة وما نصت عليه الصحيفة النازمة للعلاقات بين الرسول (ص) من جهة وبين اهل المدينة من جهة ثانية كانت دفاعية . وعند الاستعداد لخوض عمار معركة بدر انضم الانصار ، مما جعل الجماعة الاسلامية في المدينة بكاملها جماعة محاربة يتوجب على افرادها المشاركة في الجهاد بشكل أو بآخر حسب اوامر الرسول (ص) ولم يبق من فاصل بين مجتمع وجيش ، حتى ان اولئك المدنيين الذين انفصلوا عن الجيش المتوجه للمواجهة في احد اعتبر ذلك منهم علامة على عدم الاخلاص للاسلام وهم المنافقون (١٢) . وفيما بعد سارت الامور نحو وجود هذا التمايز بقدر ما كان الاسلام يتقدم وينتشر بين القبائل العربية ، اذ اصبح هناك مسلم مجاهد وآخر غير ذلك دعى بالاعرابي . وقد ثبت عن الرسول الكريم انه اذا بعث سرية في الجزيرة قال لاميرها « اذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال او خلال فأبتهن ما اجابوك اليها فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين واعلمهم انهم ان فعلوا ذلك ان لهم ما للمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين ، فان ابوا واختاروا دارهم فاعلمهم انهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ، ولا يكون لهم في الفياء والغنيمة نصيب الا ان يجاهدوا مع المسلمين » (١٣) . استمر هذا التمايز وتضخم مع الزمن ، ففي زمن ابي بكر لجأ الى التكليف ، فحيث كان انقسام بين القبائل حول الردة سنة ١١ هـ كلف من بقي على الاسلام والطاعة بمواجهة المرتدين من بني قومه ، ولتشكيل قوات حملات لمحاربة مناطق الردة الكبرى اعتمد على اهل المدينة اولا ثم كلف في المناطق الاخرى ممن لم يلتحق طوعاً في الجهاد ، كما هو

الحال في الطائف حيث كتب الى اميرها عثمان بن ابي العاص ان يضرب بعثاً على اهل الطائف على كل مخالف بقدره . كما كتب الى عتاب بن اسيد ان « اضرب على اهل مكة وعملها خمسمائة مقور » القوي بنفسه ودابته « (١٤) .

عندما بدأت الفتوحات في عهد ابي بكر ، اثر اخضاع الجزيرة العربية كلها ، لم يرض بالاستعانة بأحد من اهل الردة فيها ، الا ان الحاجة الجأت المسلمين فيما بعد للاستعانة بهم والاستفادة من طاقاتهم . وهكذا سار المشي بن حارثة الشيباني نحو ابي بكر ليستأذنه في الاستعانة بمن ظهرت توبته وتجلى ندمه من اهل الردة ممن استعظم العدو ، وليخبره انه لم يخلف احداً انشط الى قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين منهم ، لكنه وجد ابا بكر مريضاً لم يلبث ان توفي وقام عمر بالسماح بالاستعانة باهل الردة في الفتوح ، مفسحاً المجال بذلك لمشاركة كل ابناء القبائل في الجزيرة بالفتح .

تبع ذلك توسع جبهات القتال وتعددها مما خلق حاجة ووفر الامكانيات في الوقت نفسه للاستعانة بجماعات غير عربية . ولعل اول عملية انضمام قوى من خارج الجزيرة العربية الى صفوف الفاتحين تمت في جنوب غرب ايران الحالية ، حيث حصل اتصال بين ابي موسى الاشعري قائد الجيش الفاتح وسباه الاسواري قائد مقدمة يزدجرد في المنطقة ، الذي ادرك على ما يظهر صعود نجم العرب المسلمين وامكانياتهم على احراز نصر مؤكد . فعرض هذا الاخير على ابي موسى الانحياز بقومه الاساورة الى جانب العرب المسلمين بصفة حلفاء لهم على الا يتدخلوا في المنازعات التي تنشب بينهم ويكون لهم النزول بحيث شاؤوا من ارض العرب وان ينسبوا للقبيلة التي يختارونها كأحلاف لها وان ينالوا شرف العطاء ، اي الف دينار . ولم تلبث جماعات محاربة اخرى في الجيش الفارسي ان حذت حذو السابقين مثل السيابجة والزط والانديغار ، واكثرهم ممن سبى الفرس من اهل السند وادخلوه في عداد جندهم ومقاتليهم . ثم اسكنهم ابو موسى في البصرة مع الاساورة الذين سبقوهم في النزول وحفروا قناة خاصة بهم دعيت بنهر الاساورة (١٥) . واصبح الجميع احلأفا لقبائل تميم النازلة في هذه المدينة ، فصارت الاساورة في بني سعد والزط والسيابجة في بني حنظلة ، ومعهم شاركوا في الفتوحات ايضاً حتى خراسان الواقعة في الشمال الشرقي من ايران ، وبرز الاساورة في المعارك بمهارتهم في رمي النشاب . ومع ذلك لم تستطع هذه الاقوام الغريبة ان تنأى بنفسها عن النزاعات بين العرب عندما تعمقت لتبقى محافظة على احد شروط اتفاقها مع العرب بانضمامها لهم ونزولها حيث شئت ومخالفة من ارادت . فقد اضطرت جماعة من السيابجة

في البصرة الموكلة ببيت المال للخليفة الراشدي علي بن ابي طالب اثناء فتنة الجمل للبقاء الى جانبه ورفضوا تسليم بيت المال الى جماعة عائشة ام المؤمنين الذين قتلهم . وفي رواية للطبري انه كان في صفوف جيش علي زط وسيابجة ، كذلك ظهر السيابجة في صفوف المتقاتلين في فتنة ابن الاشعث ، كل هذا برّر للامويين نفي اغلبهم من العراق الى جهات متعددة (١٦) ، باعتبارهم خالفوا شرط التحالف الذي ينص على الا يعينوا العرب على بعضهم بعضاً ، كذلك سار مع عمرو بن العاص من الشام الى مصر لفتحها بعض الروم واليهود دعوا باسم الحمراء ، ويظهر انهم تحالفوا مع القبائل العربية هنا على شاكلة تحالف جماعات الفرس والقبائل العربية في البصرة . وكان هؤلاء ثلاث جماعات « بنو تيه وروبل والازرق وكانوا ممن سار مع عمرو بن العاص من الشام الى مصر من عجم الشام ممن كان رغب في الاسلام من قبل اليرموك ومن أهل قيسارية » . وكان عدد من رافق عمرو من بني تيه مائة رجل ومن بني الازرق اربعمائة رجل ومن بني روبيل الف رجل (١٧) ولم يخل جيش عمرو بن العاص في مصر من وجود جماعة فارسية اذ ينقل ابن ماکولا عن ابن يونس قوله « ان سنبحت الفارسي كان بمصر وكان على عرافة الفارسيين وكان في شرف العطاء » . وفي أقصى الشمال عند التوغل في ارمينية باتجاه الخزر لمحاربتهم في عهد هشام بن عبد الملك الذي ولاها لآخيه مسلمة ، فسأله ملوك الجبال فصار اليه كما يقول البلاذري « شروانشاه ولسرانشاه وطبرسرانشاه وفيلانشاه وخرشانشاه وصار اليه صاحب مسقط » وكان هؤلاء يحاربون معه مقابل الا يفرض عليهم تقديم شيء من الجزية او العين . وقد حدد دور كل منهم في الحرب وظهر عند تولية مروان بن محمد في زمن هشام ذاته ، الذي « جعل على صاحب شروان ان يكون في المقدمة ، اذا بدأ المسلمون بغزو الخزر وفي الساقة اذا رجعوا ، وعلى فيلانشاه ان يغزو معهم فقط وعلى طبرسرانشاه ان يكون في الساقة اذا بدأوا وفي المقدمة اذا انصرفوا » (١٨) .

بدأ العمل في الحاق المحاربين الغريباء بالجيش الفاتح في اذربيجان منذ بداية فتحها زمن عمر بن الخطاب ، وذلك مقابل اعفاء من يحشد الفاتحون من الجزية في عام حشده ، اذ يرد في كتاب امان عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب لاهل اذربيجان من جملة واجباتهم « ان يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم . . . ومن حشد منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة » (١٩) . وفي الامان الذي قدمه سراقه بن عمرو عامل الخليفة نفسه للارمن ان على هؤلاء المشاركة في الدفاع عن

مواقعهم بأن « ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل امر ناب او لم ينب رآه الوالي صلاحاً ، على ان يوضع الجزاء عمن اجاب الى ذلك ، والحشد عوض عن جزائهم ومن استغني عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على اهل اذربيجان (٢٠) .

ظلت قاعدة الاستخدام لابناء البلاد المفتوحة مستمرة الى زمن عمليات فتح ما وراء النهر ، ولو انها تقدمت باتجاه تحديد اعداد ثابتة من كل بلد عوضاً عن ترك اعداد المجندين خاضعة للظروف مقيدة بالضرورات الآتية التي يفرضها وضع معين ، وتذكر هذه الاعداد في شروط الامان والصلح لكل منطقة او مدينة ، كما يرد في الروايات ما يفيد مشاركة هؤلاء المجندين في فتح المناطق التي تلي بلادهم وكلما توغل الفتح اكثر في العمق كانت الاعداد المطلوبة اكثر . وهكذا فرض قتيبة بن مسلم الباهلي على اهل بخارى وكس ونسف خوارزم عشرين ألفاً وتفيد الرواية التي تتحدث عن حصار قتيبة لسمرقند عام ٩٣ هـ أنه « ناصحه من معه من اهل بخارى وخوارزم فقاتلوا قتالاً شديداً وبذلوا انفسهم » (٢١) . وعند ما صالح قتيبة اهل سمرقند فرض عليهم ثلاثين ألفاً « ليس فيهم صبي ولا شيخ ولا عيب ، ويفهم من اجزاء اخرى من الرواية ان هذه الاعداد كانت تخدم غرضاً مزدوجاً ، فهي محاربة ورهائن في الوقت نفسه اذ يقول قتيبة بعد دخول سمرقند « الآن ذلوا حين صار اخوانهم واولادهم في ايديكم » (٢٢) .

بينما كانت عملية الحاق ابناء المشرق وسكان البلاد المفتوحة بالجيش العربي الفاتح تأخذ مجراها في المشرق ، كان يجري الامر نفسه في الجناح الغربي من ديار العرب والاسلام ويقوم الفاتحون بضم اعداد من ابناء القبائل المغربية التي دعاها مؤرخونا القدماء بالقبائل البربرية جرياً على التسمية الكلاسيكية لها . وقد جرى الضم لاعداد من التجمعات القبلية الاساسية في المغرب وهي زناته وصنهاجة ومصمودة . اذ يحدثنا ابن عذاري أنه كان « مع حسان بن النعمان جماعة من البربر استأمنوا اليه فلم يقبل منهم الا أن يعطوه من قبائلهم اثني عشر ألفاً يجاهدون مع العرب . فأجابوه وأسلموا عليه ففقد لولدي الكاهنة لكل منهما على ستة آلاف فارس ، واخرجهم مع العرب يتجولون في المغرب يقاتلون الروم ومن كفر من البربر »

وقد عبرت عن هذا التعاون أو الاخوة في السلاح حسب التعبير الحديث بين ابناء القبائل المشرقية الفاتحة وبين قبيلة جراوة المغربية من تجمع زناته ،

تعبيراً رمزياً اسطورة حيكت حول الكاهنة تقول : « بأن الاسير العباسي خالد بن يزيد كان في جملة اسراها فقالت له يوما : « ما رأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع وأنا أريد ان ارضعك فتكون أخا لولدي ، وكان لها ابنان أحدهما بربري والآخر يوناني ... » وقالت له نحن جماعة البربر لنا رضاع ! اذا فعلناه نتوارث به فعمدت الى دقيق الشعير فلتته بزيت وجعلته على ثدييها ودعت ولديها وقالت كلامه على ثديي ففعلا ، فقالت قد صرتم اخوة (٢٣) . ويظهر ان قبائل زنانية أخرى أي من نفس التجمع ، مثل بني يفرن سلخوا مسلك اخوتهم في التجمع لانهم بقوا بعد قرون يقولون انهم موالي عثمان بن عفان الذي يعتبر فاتحة وبداية السلطة الاموية . بعد حسان بن النعمان برز موسى بن نصير كقائد منتصر في فتح المغرب ، وقد اتبع فيه سياسة قائمة على مهاجمة القبائل في مواطنها وكي يأمن بقاء هذه القبائل الكثيرة الانتقاض على ولائها صار يأخذ منها رهائن كما فعل في كتامة وهي القبيلة التي تنتمي الى التجمع القبلي الثاني صنهاجة ، وعندما قدم عليه وفدها « ولى عليهم رجلا منهم وأخذ منهم رهائن من خيارهم » . وفي المغرب الأقصى حيث ينزل في مرتفعاته وجباله التجمع القبلي الثالث مصمودة، تكرر ما حصل في اجزاء المغرب الاخرى اذ « حمل أبو مدرك زرعة بن ابي مدرك رهائن المصادمة ، جمعهم موسى مع رهائن البربر الذين اخذهم من افريقياس والمغرب وجعل عليهم مولاة طارقا ودخل بهم جزيرة الاندلس (٢٤) .

اضافة لهؤلاء الملتحقين بالجيش العربي الاسلامي او بالخدمة كحلفاء للعرب شارك في الفتوح ايضا عنصر آخر هو عنصر العبيد ، الذين حاربوا الى جانب اسيادهم . وقد يمن عليهم هؤلاء الآخرون بالحرية ليصبحوا موالي لهم ولكنهم موالي عتاقة مختلفين عن موالي الحلف كحلف الاساورة مع تميم .

وهذا ما يفسر لنا ماحدث في الصراع بين العرب والموالي في مناطق من الدولة عندما عزم العرب على الموالي كلهم وصف العبيد ونعتوهم ببني العبيد واعتبروا مشاركتهم لهم في الفء غبنا لا يحتمل ، كما فعل اشراف الكوفة تجاه المختار بن أبي عبيد عندما استنكروا عمله في مشاركة الموالي لهم في فيئهم . كذلك كان أبناء القبائل المغربية في المغرب والاندلس يشكون من عدم ادخالهم في ديوان العطاء وعدم مشاركتهم في الفء ، ولم يجد عبد الرحمن الداخل عندما أراد التمكين لنفسه في الاندلس وتوسيع قاعدة الدعم لدولته وسيلة افضل من ادخال أبناء هذه القبائل في الديوان (٢٥) .

كانت عدة الرقيق كبيرة لدى بعض القادة ، فقد استرق عبيد الله بن زياد في غزوة لمنطقة ما وراء النهر أربعة آلاف سنة ٥٤ هـ وأسكنهم البصرة (٢٦)

وربما تجاوز موسى بن نصير الجميع في عدد من استرقهم واصطنعهم مما جعل بعض الكتاب يطلقون العنان لخيالهم في سرد قصص عنهم كتلك التي يوردها ابن قتيبة « قال وذكروا عن بعض المصريين ، ان رجلا منهم اخبرهم ان يزيد قال لموسى ذات ليلة ، وقد سهر سهرًا طويلاً : يا ابا عبد الرحمن ، كم تعد مواليك واهل بيتك ؟ فقال كثير . قال : يكونون الفا ؟ قال له موسى : نعم والفا الفا حتى ينقطع النفس ، لقد خلفت من الموالي ما اظن ان احدا لا يخلف مثلهم » (٢٧) .

لكن هذا الرقيق لم يكن ليصب كله في مجرى القوى المحاربة اذ كان فيه الجواري وفيه من يستخدم في الاعمال الخاصة بالسادة ، حتى ان احد فاتحي ما وراء النهر جعل الرهن لديه يعمل في المدينة بالزراعة مما جعل افراد الرهن الذين كانوا من عليّة القوم يفتالونه (٢٨) .

من ناحية اخرى يطرح السؤال التالي نفسه ، وهو الى اي حد كان دور الموالي المتحقين بالجيش العربي ، بصنفيهم من موالي الحلف وموالي العتاقة ، فعلا وحاسما ؟ وتجبب الوقائع على هذا التساؤل ان هذا الدور أصبح فاعلا وحاسما ، اواخر القرن الاول الهجري وفي طرفي الدولة القصيين ؛ اقصى الشرق واقصى الغرب . فقد استخدموا بأعداد كبيرة في فتوحات ما وراء النهر وفي ارمينيا وبرز دورهم كقوى تعمل تحت امرة قادتها أو امرائها وتحتل موقعا خاصا بها في الجيش كمقدمة أو ساقية . وفي المغرب كانت فعالية دورهم اكبر وواضح لدرجة ان الحملة الاولى التي حطمت قوة القوط الضاربة في الاندلس وباشرت فتحها مكونة في غالبيتها من المغاربة الذين يقودهم طارق بن زياد .

اما في الفترة الاولى وفي قلب الدولة فكان عدد الموالي وبالتالي دورهم متواضعا ، فقد لاحظنا اعداد الروم الذين رافقوا عمرو بن العاص في فتح مصر ، كذلك يذكر البلاذري عن جماعة السيابجة الذين حالفوا العرب في جنوب شرق ايران « انهم اربعون ويقال اربعمائة » . واذا كان هذا الرقم يمثل عدد جماعة انضمت للعرب في الفترة الاولى في عصر الخلفاء الراشدين فان الاعداد العاملة ضمن الجيش الدائم في قواعد المركز ظل ضئيلا بالقياس الى اعداد ابناء القبائل العربية . ونجد مثلا على ذلك في احدى روايات الطبري التي تتحدث عن اعداد جند البصرة في خراسان في فترة خلع قتيبة وتقول « من اهل العالية تسعة آلاف وبكر سبعة آلاف وتميم عشرة آلاف وعبد القيس اربعة آلاف والازد عشرة آلاف والموالي سبعة آلاف عليهم حيان من الديلم أو من خراسان » بهذا وباستخدام هذا الرقم كمؤشر ، يمكننا القول ان الموالي بعناصرهم المختلفة لم يزد اسهامهم في جند قاعدة من قواعد قلب الدولة عن اسهام قبيلة عربية واحدة من القبائل الست .

عدد الجيش :

مما مر نستنتج ان تحديد اعداد القوات المحاربة في الدولة العربية الاسلامية ، ليس بالامر السهل لكون البعض جندا دائمين وقيام البعض بالحرب في اوقات معينة وظروف محددة . لكن من الممكن تقديم ارقام لانستطيع الجزم بصحتها الاكيدة وانما يمكن الركون اليها واعتبارها قريبة من الصدق لكون مصادرها ذات صلة بالدواوين التي تسجل العطاء، وهي الارقام المتعلقة باعداد الجند الدائمين أو النظاميين الذين يتناولون العطاء ويحوزون على نسبة من الغنيمة . وقد سارت هذه الاعداد في خط متصاعد منذ الهجرة حتى ذروة موجة الفتوحات في العصر الاموي . اذ لم تتجاوز العشرات في زمن بعث الرسوم (ص) للسرايا عندما كان القتال خاصا بالمهاجرين فقط ، ثم قفز الرقم الى عدة مئات بعد مشاركة الانصار ، فقد بلغ عدد المشاركين من المسلمين في موقعة بدر « ثلاثمائة وبضعة عشر ، وكان المهاجرون سبعة وسبعين رجلا وكان الانصار مائتين وستة وثلاثين » وتضاعف هذا العدد ثلاث مرات عند خروج المسلمين لمواجهة قريش في أحد ، اذ خرج الرسول (ص) في الف من اصحابه ، وانخرل عنه في الطريق عبد الله بن ابي بن سلول بثلاث الناس ، وفي الحديبية وما بعدها عند غزوة خيبر يحدثنا البلاذري ، ان الرسول (ص) قسم خيبر على ستة وثلاثين سهما له ثمانية عشر سهما لما ينوبه من الحقوق وامر الناس وقسم ثمانية عشر سهما كل سهم لمائة ... ممن شهدوا الحديبية وهم الف وخمسمائة واربعون والذين كانوا بأرض الحبشة اربعون رجلا « (٢٠) وعند قيام موجة الفتوحات والقبول بمشاركة جميع عناصر الجزيرة العربية قفز العدد قفزة هائلة اذ يذكر ابن عبد الحكم ان « الديوان كما حدثنا سعيد بن عفير عن ابن لهيعة في زمن معاوية اربعين الفا » (٢١) وهناك ما يسم ويطلع هذه الرواية بسمة الصحة وطابع الاعتدال ، خاصة وأنها تنسجم مع روايات اخرى عن اعداد الجند في فترة سابقة . ففي رواية تسند الى محمد بن الحنفية تجعل جيش أبيه عند نزوله في العراق قبيل موقعة الجمل في حدود عشرة آلاف . خرج علي من المدينة في سبعمئة رجل وانضم اليهم من الكوفة سبعة آلاف ومن حولهم الفان (٢٢) . واكثر الروايات مبالغة في تضخيم عدد جيش علي تصل بمن خرج اليه من أهل الكوفة عماد جيشه الاساسي الى اثني عشر الفا . مقابل هذا تبدو رواية سيف في الطبري والتي تصل بعدد من التفت حول عائشة في موقعة الجمل ثلاثين الفا مبالغة الى حد كبير ، وفي فترة الفتوحات الواسعة في العصر الاموي بلغ عدد جنود الديوان في الشرق أي مركز

التوسع الكبير مائة ألف كما يستغلد من رواية للطبري اثناء حديثه عن ذروة المواجهة بين الحجاج والثائرين عليه بقيادة ابن الاشعث بقوله « واصبح اهل الكوفة واهل البصرة واهل الثغور والمسالح بدبر الجماجم والقراء من اهل المصريين فاجتمعوا جميعا على حرب الحجاج وجمعهم بغضهم والكراهية له ، وهم اذ ذاك مائة ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم » . فاذا اعتبرنا ان عدد الجند ممن يأخذ العطاء في الجناح المقابل الغربي معادلا لعدددهم في الشرق بلغ عدد من ينال العطاء مائتي ألف ، ومثل هذا الامر في التعادل بين الجهتين كان واردا في ذهن الاخباريين سابقا ففي رواية للمدائني ينقلها الطبري ان يزيد بن المهلب انطلق من خراسان لفتح جرجان « في عشرين ومائة ألف ومعه من اهل الشام ستين الفا » لكن هذه الاعداد لم تكن تشارك كلها في الحرب ، وانما كان يضرب عليها البعث للقيام بمهمة ما ، فيختار العدد المطلوب لهذه المهمة ، أو يترك لمن يوكل اليه أمر الحملة أمر الاختيار والانتقاء . اما في حالات النفير عند الخطر العام فيجب ان يخرج الجميع . وقد لوحظ ميل عام نحو التراخي واهمال الالتحاق بالحملات أو بالجيش المحارب منذ استشارة الفتنة عند الصراع بين علي ومعاوية ، وخاصة في ايام الاول الاخيرة . وقد اعتبر علي التراخي والتعاس ناتجا لاعتن رغبة في الخوض بفتنة وانما تمسكا بالحياة ، فورد في كتابه الذي قرىء على المنبر في ايامه الاخيرة ما نصه « قد صرتم غرضا ترمون ولا ترمون ويفار عليكم ولا تغيرون ، ويعصى الله فترضون ، اذا قلت لكم سيروا في الشتاء قلتكم كيف نغزو في هذا القر والصر ، وان قلت لكم سيروا في الصيف قلتكم حتى ينصرم عنا حمارة القيظ ، وكل هذا فرار من الموت ، فاذا كنتم من الحر والقر تفرون فانتم والله من السيف أفر ، والذي نفسي بيده ما من ذلك تهريون ، ولكن من السيف تحيدون ... » واضطر آخر الامر عند العزم على التوجه ضد معاوية ولم ير غير ثلاثمائة رجل ، الى العمل بنصيحة حجر بن عدي وسعيد بن قيس الهمداني اللذين قالوا « اجبر الناس على المسير وناد فيهم فمن تخلف فمر بمعاقبته » فأمر مناديا فنادى في الناس لا يتخلفن أحد وأمر معقل بن قيس ان يسير في الرسانيق فلا يدع أحدا من جنوده فيها الا حشره ، فلم ينصرف هذا الا بعد مقتل علي (٢٢) . وتزايد هذا الامر باطراد خلال العصر الاموي ووجد فيه بعض القواد خطرا شديدا يتجاوز ضرورة الدفاع ضد عدو خارجي أو فتنة داخلية ليتعداها الى تعريض اعراض الجند الذين يذهبون للقتال ويخلفون نساءهم وراهم للخطر . وقد خطب مسلم بن سعيد امير خراسان سنة ١٠٦ هـ عند قيامه بالغزو فقال « ... ما اخلف بعدي شيئا أهم عندي من قوم يتخلفون مخلفي الرقاب ، يتواثبون الجدران على نساء المجاهدين »

ادى هذا الامر لقيام الخلفاء والولاة بفرض العقوبات على المتخلفين منها الغاء العطاء . فعندما توفي بشر بن مروان الذي وجه اهل مصري الكوفة والبصرة تحت قيادة المهلب لقتال الازارقة ، انصرف كثير من الناس بموته فهدهم عبد الملك برسالة حملها مولاه بقوله : « ومن عصى ولاة الامر والقوام بالحق اسخط الله عليه ، وكان قد استحق العقوبة في بشره وعرض نفسه لاستفاء ماله والغاء عطائه » (٢٥) .

وقام الحجاج بفرض عقوبة اشد وصلت الى الاعدام ومصادرة الاموال وذلك في حالتي النفي وضرب البعث . فقد استنفر الحجاج الناس في السنة التالية بقوله : « والله لتستقيمن على سبل الحق أو لادعن لكل رجل منكم شغلا في جسده ، ومن وجدت بعد ثلاثة من بعث المهلب سفكت دمه وانهبت ماله » وأوجد طريقة محكمة للتحقق من الالتحاق وعدم التخلف ، فلم يجعل التواجد عند العرفاء في مصر والخروج مع الجيش دليل براءة من التخلف بل ارسل العرفاء الى مقر المهلب برامهرمز ليأخذوا منه كتب موافاة الناس لهم وتبرئة انفسهم . وسلك نفس الطريق في حالة البعث ، فعندما وجه عثمان بن سعيد ضد الخوارج وأمره بالخروج عن المدينة وانتظار موافاة الناس ، طلب من اصحاب الدواوين ضرب البعث ليخرجوا اربعة آلاف من الناس من كل ربع الف رجل ، ولما فعلوا ، اهدر دم من يتخلف ممن ضرب عليه البعث بعد اربعة ايام .

لكن هذه الشدة بدأت تزول وزادت نسبة التخلف كما شاعت قضية ارسال البديل التي كانت تتم بقيام المكلف بدفع ما يسمى جعالة أو جعالة أو جعالة ومعناها الاصلي اجر العمل أو الرشوة ، لكن المعنى الاصطلاحي كما ورد في اللسان « ان يكتب الغزو على الرجل فيعطى رجلاً آخر شيئاً ليخرج مكانه يجعل يشترطه » . واتسم الموقف من هذا العمل على الصعيدين النظري الشرعي والعملي الواقعي بعدم التصريح بجوازه . فمن الناحية النظرية سئل ابن عمر عن الجعالة فلم يحرمها صراحة بل كان جوابه اميل للقبول بها الى حد انه صرح بأن البديل ينال ثواباً بجهاذه وحلالاً بفنيتمته اذا توفرت عنده النية في الغزو ولم يغز رغبة في المال وذلك بقوله « اذ أنت اجمعت الغزو فعوضك الله رزقاً فلا بأس به واما ان اعطيت دراهم غزوت وان منعت اقمتم فلا خير فيه » ، اما عن كون المال الذي يأخذه البديل كأجر لخروجه حلالاً أو حراماً فيقول « ان كان عبداً أو أمة يختص به ، أي بمن يأخذ الجعالة فهو غير طائل ، وان جعله في كراع أو سلاح فلا بأس » (٢٨) . وعلى الصعيد العملي نجد الخلفاء يتراخون

امام العمليتين التخلف والجمالة ، اذ ضرب الوليد بن عبد الملك بعث الفين « وتجعلوا فخرج الف وخمسائة وتخلف خمسمائة » (٢٩) .

وعالج الولاة والقواد امر ارسال البديل سنة ١٦ هـ بطريقة تدل على انهم ارادوا التوفيق بين منعه من جهة وهدم المعاقبة على القيام به من جهة ثانية ، وذلك بأخذ القسم من المكلف على يمين لا نعرف نصه ولكن يفهم من سياق الخبر الوارد فيه انه غير دقيق في الفاظه ويسمح لمن يقسمه بالتحايل وتنفيذ رغبته . نجد مثلاً على ذلك فيما حدث عند ما عين اسد بن عبد الله على قيادة الجيش الغازي في بلاد ما وراء النهر في العام المذكور وترك تصريف الامور الى المولى توبة ، الذي يورد الطبري وصفه بالقول انه « احسن الى الناس والان جانبه واحسن الى الجند واعطاهم ارزاقهم ، فقال له اسد : حلفهم بالطلاق فلا يتخلف احد عن مفزاه ولا يدخل بديلاً ، فأبى ذلك فلم يحلفهم بالطلاق . قال : وكان الناس بعد توبة يحلفون الجند بتلك الايمان ، فلما قدم عاصم بن عبد الله اراد ان يحلف الناس بالطلاق فابوا ، وقالوا نحلف بايمان توبة » .

ويظهر ان التخلف والتقاعس عن تلبية داعي الحرب مرده الى الاستقرار الذي تجاوز القواعد القديمة الى المناطق القاصية في اقصى الشرق واقصى الغرب للدرجة انه اصبح لكل فرع عشيرة عدا النسب رابطة ارض . وهكذا يورد الطبري اسماء قرى في اقصى الشرق ترتبط باسم قبيلة مثل قرية « باسان » وهي لبني نصر وبوينة وهي لطيء (٤١) . اما في اقصى الغرب في الاندلس حيث نزلت كل قبيلة عند الفتح فيما طاب لها من ارض للدرجة ان العشائر والقبائل نزلت كل منها في اماكن خاصة . مما اعطى النسب معنى ارضياً مع الزمن واستمر الوضع قروناً عدة للدرجة ان الفقيه ابن حزم الذي جاء بعد اربعة قرون وكتب انساب العرب ، استطاع ان يحدد امكنة نزول ومواطن القبائل الفاتحة . وخدا الجند الذين جاؤوا بعد فترة الفتح بربع قرن حذو اسلافهم وقد ربط قائدهم يلج بن بشر بين معنى اسم مدينة وهي ابده وبين تأييدها على قبيلة معينة في صفوف جيشه (٤٢) . لكل ذلك كان توجيه الحملات والتفريق يواجه بتقاعس من هؤلاء المستقرين ، واذا كان صعباً بالنسبة للقريين من الثغور المستقرين فهو اكثر صعوبة بالنسبة لمن يوجهون من القواعد القديمة البعيدة كالتوجه من البصرة والكوفة الى اقصى الشرق ، وكان الثائرون من القواد يستغلون النعمة التي تعمر القلوب من جراء البعد عن المواطن ، كما فعل ابن الاشعث عندما اثار الجند على الحجاج بقوله « انكم ان اطعمتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم ... ولن تماينوا الاحبة فيما ارى او يموت اكثركم » وكانت اوضاع جند

الشام اكثر صعوبة اذ انهم كانوا مصدر النجدات لآخمد الثورات او للمعونة في الفتح ، كارسالهم زمن الحجاج نجده له ضد ثورة ابن الاشعث ، وارسالهم زمن هشام لآخمد ثورة القبائل المغربية الى اقصى اراضي المغرب التي وصلوا منها الى الاندلس (٤٣) .

ولعل ما يعطي صورة بالغة الدلالة على ما تثيره هذه العملية من نقمة ، وعد يزيد الثالث ، في جملة وعوده التي أطلقها لنيل الدعم لحكمه ، ان يبقوا قوات الشام في ارضها ولا يرسلها الى الخارج ، كما جرى الامر مراراً وتكراراً قبله (٤٤) .

تعبئة الجيش :

تطور شكل التعبئة وفق التزايد في الاعداد وتنوع الاسلحة وضرورات مواجهة الجيوش الكبيرة للاعداء التي واجهها العرب المسلمون ، ومع ذلك ظلت مراعاة العصبية والارتباطات الاجتماعية شيئاً يؤخذ بالحسبان ، ويظهر هذا واضحاً جلياً في التعبئة .

كانت نواة الجيش العربي الاسلامي كتلة شديدة التماسك اذ يربط بينها الايمان والنسب القبلي وان طغى الايمان على النسب القبلي حتى كاد يمحوه ، اذ ان اسم المهاجرين لحق بكل من آمن من القبائل الاخرى في الفترات الاولى وهاجر الى المسلمين . وعندما وافق الانصار على الاشتراك في الهجوم تحت قيادة الرسول (ص) صار الجيش يسير الى الحرب وهو مؤلف من وحدتين متميزتين وان لم تتميز كل جماعة براية خاصة ، لكن تضخم الجيش بعد الحديبية وقبيل فتح مكة خاصة وضرورات التوجيه والقيادة جعل الوحدات تتمايز اكثر . فعدا عن المهاجرين والانصار الذين ظلوا تحت قيادة الرسول (ص) كونت كل قبيلة وحدة خاصة تحت رايته ، كما يستفاد من خبر ايقاف ابي سفيان زعيم مكة القادم على الرسول (ص) في مكان يرى منه مرور الجند الاسلامي مع العباس بن عبد المطلب حسب ابن هشام الذي يقول « ومرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال : يا عباس من هذه ... » وازداد التمايز عند تكوين الجيوش في حروب الردة ، اذ أصبح لكل وحدة قائد ، كما يظهر في جيش خالد المتوجه لمحاربة مسيلمة حيث كان « على الانصار ثابت بن قيس والبراء بن فلان وعلى المهاجرين ابو حذيفة ، وعلى القبائل على كل قبيلة رجل » . ويظهر ان دوافع عدة لعبت دورها في هذا التقسيم والتمايز ، منها ضرورة تمكين القائد العام للجيش من ادارة دفعة التوجيه لهذه الاعداد مما يضطره لتقسيمها الى

وحدات ، اما جعل الوحدة قبيلة وليس غير ذلك فمرده الى ضرورة تأمين الطاعة من جهة وضمان التعاون والتلاحم بين افراد الوحدة وكذلك الاستفادة من اعتزاز القبيلة بمكانتها ، اذ يتميز عملها بذلك وتحدد مسؤوليتها ومدى اسهامها في تحقيق النصر ومسؤوليتها عن الهزيمة . ويظهر هذا الامر واضحاً في الروايات التي تتحدث عن ذلك في جيوش الردة . فقد ردت احداها سبب التمييز الى تقاذف التهم بين الجماعات حول المسؤول عن الهزيمة فتقول « ان المهاجرين والانصار جبنوا أهل البوادي وجبنهم أهل البوادي ، فقال بعضهم لبعض ، امتازوا كي نستحيا من الفرار اليوم ، ونعرف اليوم من أين نؤتى ففعلوا . وقال أهل القرى : نحن اعلم بقتال أهل القرى يا معشر أهل البادية منكم فقال لهم أهل البادية : ان أهل القرى لا يحسنون القتال ، ولا يدرون ما الحرب » (٤٦) . ويأتي الطبري برواية أخرى لسيف يرد فيها التمييز الى القائد خالد بن الوليد لتحديد المسؤولية وتقول « لما اشتد القتال ، كانت يومئذ سجلاً انما تكون مرة على المسلمين ومرة على الكافرين فقال خالد ايها الناس امتازوا لنعلم بلاء كل حي ولنعلم من أين نؤتى ، فامتاز أهل القرى والبوادي وامتازت القبائل من أهل البادية وأهل الحاضر ، فوقف بنو كل أب على رايتهم فقاتلوا جميعاً » . افلح هذا النظام في تحقيق الغاية اثناء حروب الردة ، لكنه بدا غير ملائم اثناء الفتوحات عند ما قفزت الاعداد قفزات كبيرة وتكونت جيوش ضخمة اضطرت اثناء زحفها لمواجهة جيوش كبيرة منظمة محتشدة ، وينسب احداث التطوير الملائم في اللحظات الحاسمة لخالد بن الوليد ، تصوراً وتطبيقاً . فقد لاحظ عندما قدم بمدد من العراق الى الشام حيث وقفت أربعة جيوش ، كان كل منها مخصصاً لفتح منطقة في الاصل ، في مواجهة الجيش البيزنطي المحتشد في اليرموك . ورأى انها عاجزة من مواجهته بوضعها الراهن . اذ كانت كما قال « على تساند وانتشار » بينما كان الجيش البيزنطي على نظام وتعبئة ، ويعني التساند كما في اللسان خروج القوم على رايات شتى دون قائد عام يجمعهم ، كما يعني الانتشار تفرق الابل عن راعيها وتفرق الجيش عن قائده . فاقترح وجود قيادة عامة من جهة ، وتعبئة الجيش على طريقة الكراديس من جهة ثانية . فجعل اعداده التي تبلغ حوالي الاربعين الفا في حوالي اربعين كردوساً . ويرجع ان يكون معنى الكردوس هنا جمع وحدات الجيش في كتائب لان التكردس في اللسان يعني « الانقباض واجتماع بعضه الى بعض وكردس القائد خيله اي جعلها كتيبة كتيبة » (٤٧) . ثم جمعت هذه الكراديس في وحدات اكبر هي :

مقدمة او طليعة وقلب وجناحان وردد او ساقة . لكنهم عند المسير في الشعاب وعدم الخشية من الاحاطة بهم من هذه الناحية لايتخذون مجنبتين او جناحين . وتحدد الرواية العلاقة بين الكردوس او الكتيبة وبين الوحدة العسكرية

السابقة وهي القبيلة ، أو العشيرة منها . هل كانت الكتيبة قبيلة أو عدة قبائل ؟ أو ان القبيلة كأقسام المدن قد يكون بعضها مؤلفاً من قبيلة واحدة وبعضها الآخر من عدة قبائل ذوات اعداد صغيرة كالاسباع والارباع والاحماس ؟

ومهما يكن من امر تبدو الوحدات هنا كراديس أو كتائب على كل منها قائد يخضع لقائد القسم الذي يتبعه من اقسام الجيش الخمسة . ويظهر لنا من الروايات التي تسرد اخبار المعارك ان رابطة النسب القبلية ظلت تراعى في تشكيل الكتائب أو وحدات الجيش التي تدخل ضمن وحدات اكبر قائمة على اساس الروابط الجديدة التي نشأت بعد موجة الفتوحات ، كروابط الارباع والاحماس والاسباع ضمن المدينة أو القاعدة العسكرية أو الجند . وازافة لرابطة النسب نشأت وحدات على اسس اسلامية لا علاقة لها بالنسب بل بفئات اجتماعية جديدة ظهرت ضمن المجتمع الاسلامي كفئة القراء . كذلك ظهرت وحدات متميزة بسبب الاعتماد المتزايد على العنصر المتحرك في الحرب وهو الخيل الذي يستحق تطور استخدامها وقفة خاصة .

الخيـل واستـخدامها :

اهتم العرب منذ الجاهلية بالخيـل اضافة لاهتمامهم بالجمال ، وخاصة في حالات الحرب وغاراتها نظراً لسرعتها وليونة حركتها ، كما كانت في اوقات السلم وسيلة احتفالات جماعية كاقامة حلبات السباق الذي كانت له قواعده التي تحدد فيها مراتب الخيل السابقة وتحديد اسماء خاصة لها (٤٨) ، كما ذاع صيت بعض الخيول واشتهرت اسمائها بعدما ارتبطت حروب متطاولة بين بعض القبائل باسمائها . ومن الشائع ان العرب اعتقدوا بوجود انساب للخيـل شبيهة بأنساب البشر ، وان خيل الجزيرة الاصيلة انحدرت من « زاد الراكب » الحصان الذي منحه سليمان الحكيم لقبيلة الازد . ومن ثم أصبح النسب للخيـل يشرفها ، ويعوضها عما يفقدها اياه أحياناً المنظر غير اللائق من الاعتبار حتى خلال العصور الاسلامية، فعندما هدد الحجاج احدهم قطع عطاء فرسه الاعرج، اثبت صاحبه نسبه الى زاد الراكب ، فتراجع الحجاج (٤٩) .

جاء الاسلام وحاجته للقوة دفاعاً عن المسلمين ودعوتهم وحرية نشرها فدعا المسلمين لاعداد وسائل القوة التي وضع الخيل في مقدمتها أو مرادفة لها كما تدل على ذلك الآية الكريمة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون بها عدو الله وعدوكم » . وقام الرسول الكريم يشجع على ارتباطها

بالقول والفعل ، فقد فضلها في السهمان ، وذهب الجمهور « أن للفارس ثلاثة أسهم واحد له واثنتان لفرسه ، وأما الراجل فله سهم واحد » . أما في الأقوال فيؤثر عنه « الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة واهلها معانون عليها . فامسحوا نواصيها وادعوا لها بالبركة » وفي رواية أخرى « الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة ، واهلها معانون عليها والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة » ويثاب الانسان حتى على النية « من هم ان يرتبط فرساً في سبيل الله بنية صادقة اعطي اجر شهيد » . كما اعتبرت بعض الاحاديث العملية واجبة على القادر « ما من رجل مسلم الا وحق عليه ان يرتبط فرساً اذا اطاق ذلك » . واتبع المسلمون بعد وفاة الرسول سنته المتمثلة في أفعاله وأقواله في الاهتمام بالخيل ، لابل أن أهمية الخيل ازدادت لديهم بسبب استمرار الفتوحات وضرورات الحركة ضمن مسافات شاسعة اضافة لتعاظم الجيوش وتطور أساليب عملياتها ، والحاجة في بعض الاحيان لتقديم الامدادات السريعة . وقد ظهر ذلك واضحاً منذ أيام الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب الذي امر باقامة مراكز تجميع لها تكون في الوقت نفسه موضع الاعداد والاكثر ، كما يستفاد مما يورده الطبري بالقول « كان لعمر أربعة آلاف فرس عدة لكون ان كان يشتهيها في قبلة قصر الكوفة وميسرته ومن أجل ذلك يسمى ذلك المكان الآري الى اليوم ، ويربعا فيما بين القرات والابيات من الكوفة مما يلي العاقول فسمته الاعاجم آخر الشاهجان يعنون معلق الامراء ، وكان قيّمه عليها سلمان بن ربيعة الباهلي في نفر من اهل الكوفة يصنع سوابقها ويجريها في كل عام ، وفي البصرة نحو منها وقيمه عليها جزء بن معاوية ، وفي كل مصر من الامصار الثمانية على قدرها ، فان نابتهم نائبة ركب قوم وتقدموا الى ان يستعد الناس » وفي أماكن أخرى تشير رواية أخرى الى تعميم العملية على الامصار اذ ان « عمر اتخذ في كل مصر على قدره خيولا من فضول أموال المسلمين عدة لكون ان كان فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف » . وعندما اختط العرب المسلمون القطائع تركوا بينهم وبين البحر (النيل) والحصن قضاء لتعريق دوابهم وتأديبها . ويورد ابن عبد الحكم ما يفيد ان ولاية العرب المسلمين ساروا على نهج عمر في هذا المضمار وذلك بقوله « كان الناس يجتمعون بالفسطاط اذا قفلوا فاذا حضر مرافق الريف خطب عمرو بن العاص فقال : قد حضر مرافق ريفكم فانصرفوا [وعودوا في الصيف] اذا حمض اللبن واشتد العود وكثر الذباب فحي على فسطاطكم ولا اعلمن ماجاء احدكم قد أسمن نفسه واهزل جواده » وفي مكان آخر يهدد من فعل ذلك « واعلموا اني معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن اهزل فرسه من غير علة

حططت من فريضته قدر ذلك واعلموا انكم في رباط الى يوم القيامة » . وفيما بعد وحتى أواخر القرن الاول عندما كان قتيبة بن مسلم الباهلي يقود العمليات في بلاد ما وراء النهر ويعبر عبر اراض فسيحة وصحارى مترامية الاطراف يلعب فيها الاستكشاف وقطع الحواجز المائية دوراً بارزاً ، اشتهر عنه اهتمامه بانتقاء واعداد الخيول للطلائع يشتريها عقب العودة من كل غزو كما تعبر عن ذلك رواية الطبري بالقول « وكان قتيبة اذا رجع من غزاته كل سنة اشترى اثني عشر فرساً من جياد الخيل ، واثنى عشر هجيناً ، لا يجاوز بالفرس اربعة لآف فيقيم عليها الى وقت الغزو ، فاذا تأهب للغزو وعسكر قيدت واضمرت ، فلا يقطع نهراً بخيل حتى تخف لحومها فيحمل عليها من يحمله من الطلائع » (٥٢) .

صفوف الجيش :

نجد هذه الاعتبارات التي اوردناها واضحة بشواهد من وصف صفوف الجيش عند تقدمها للمعارك، ففي موقعة صفين كان الجيش مؤلفاً من وحدات قبلية هي عبارة عن فرع القبيلة المقيم في مكان معين كتميم البصرة ، يقودها فرد منها ولها رايته . كما أن كل قسم من هذه الاقسام الخمسة كانت مؤلفة من تجمع قبلي اكبر كما هو حال جيش علي عند التعبئة في الموقعة ذاتها فوضع في القلب مضر وفي الميمنة ربيعة وفي الميسرة اهل اليمن ، أما اقسام جيش معاوية الكبرى فكانت عبارة عن فروع القبائل التي تعيش في جند معين وهكذا يشار لعمل معاوية بالقول « استعمل على اهل دمشق الضحالك بن قيس وعلى اهل حمص ذا الكلاع وعلى اهل قنسرين زقر بن الحارث وعلى اهل الاردن سفيان بن عمرو وعلى اهل فلسطين مسلمة بن خالد » .

وكانت كل كتلة كبرى سواء اكانت كتلة قبلية كبيرة تكون أحد اقسام الجيش الخمسة أو مجموعة العشائر في جند معين تنقسم الى قسمين رئيسين هما : الرجال والخيالة ولكل من القسمين قائد . كما نستنتج من اللوحة الكاملة التي يرسمها لنا أبو حنيفة الدينوري (٥٢) لكن الخيالة لم يلبثوا ان انقسموا بدورهم الى قسمين ؛ الخيول العادية التي اصبحت تعرف باسم الخيول المجردة أو المجردة فقط ، والخيول المجففة التي عليها التجافيف، جمع تجفاف وهو ما يوضع على جوانب الخيل من معدن أو ما يشابهه ، ويظهر أنها عمت الجيش في أواخر القرن الاول واول الثاني ، اذ كان يشار للخيالة دائماً بهذين الاسمين عند الحملات ولكل منها قائدها . ويذكر المدائني في خبر غزوة طخارستان « فركب الناس الى الجنيد (قائد الحملة) فسير تميماً والازد في الميمنة وربيعه في الميسرة مما يلي

الجبل ، وعلى مجففة خيل بني تميم عبد الله بن زهير بن حيان وعلى المجردة عمر - أو عمرو - بن جرقاس ، وعلى جماعة بني تميم عامر بن مالك الحماني وعلى الازد عبد الله بن بسطام بن مسعود بن عمرو المعنى، وعلى خيلهم المجففة والمجردة فضيل بن هناد وعبد الله بن حوذان ، احدهما على المجففة والاخر على المجردة » ويظهر أن عملية وضع التجافيف كانت للجمال اول الامر تقليدا للقبيلة التي واجهتهم في معارك فتح العراق الكبرى وقاوموها بطرق مختلفة ثم قاموا حسب التعبير الذي يورده الطبري « وعندما فعل المسلمون ما فعلوا بالفيول تكتبت كتائب الابل المجففة فعربوا فيها وكفكفوا عنها » .

وكانت هذه القوى بهذا التنظيم تتقدم للمعارك صفوفها اختلف عددها من معركة لآخرى ، لكن القوات الصغيرة كانت تشكل كتائب صغيرة متحركة لانها لاتستطيع المواجهة بالصفوف والمقاتلة على أساس الزحف . وفي آخر العصر الاموي تطور الامر في عهد مروان الثاني فاستغنى عن الصف واصبحت الحرب حرب كرايس تهاجم او تنسحب ككتلة وليس على اساس الصف (٥٥) .

القيادة ومرافقو الجيش :

بهذا النظام كان الجيش يسير ويتقدم نحو المعارك تحت امرة قائد عام كان الرسول الكريم اول الامر او احد صحابته فيما بعد الى أن كانت سنة ١٣هـ وجاء المثنى بن حارثة الشيباني يطلب من الخليفة توجيه النجدة ، فقام عمر بعد بيعته يندب الناس لحرب فارس فلم ينتدب أحد طيلة ثلاثة ايام وفي اليوم الرابع تقدم اثنان احدهما أبو عبيد الثقفي الذي لم يكن من أهل السابقة . وعندما اجتمع الناس أو البعث للعراق قيل لعمر « أمر عليهم رجلا من السابقين من المهاجرين والانصار . قال : لا والله لا أفعل ؛ ان الله انما رفعكم بسبقكم وسرعتكم الى العدو . فاذا جبنتم وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسة منكم من سبق الى الدفع واجاب الى الدعاء ، والله لا أوامر عليهم الا أولهم انتداباً » (٥٦) ، ومع ذلك ابقى عمر للصحابة مكانة خاصة فرغم تعيينه لابي عبيد الا أنه امره بأن يسمع من أصحاب الرسول (ص) وأن يشركهم في الامر . ورغم مكانة المثنى منه الا أنه أجابه كرد على شكوى من زعيم بجيلة ذي السابقة أنه لن يمكنه من التحكم بأحد أصحاب رسول الله . وظلت قضية السابقين تراعى حتى في التعيين للقيادات الا صغر فعندما سمح عمر لسعد بن أبي وقاص باستخدام المرتدين أمره « ألا يولي رؤساءهم على مائة » . لكن شرط السابقة لم يدم بعد عمر أن تولاه

اناس لاسباب اخرى مختلفة للقرابة او للكفاءة او للاخلاص الى حد تعيين موالي الامراء ، كما هو حال موسى بن نصير في تعيين مولاه طبارق بن زياد لفتح الاندلس .

وكان الى جانب القائد حسب اخبار اوائل القرن الثاني الهجري هيئة من المستشارين تشاهدهم لدى القادة في العمليات الحربية في اقصى الشرق واقصى الغرب . فعندما ارسل هشام جيشا شاميا لاختاد ثورة القبائل المغربية بقيادة كلثوم بن عياض « عهد اليه ان يطيع هرون القرني مولى معاوية بن هشام ومفيثا مولى الوليد لمعرفتهما بالبلد » وعند اجتماع جيشه بجموع القبائل المغربية وصفا للقائد خطة مناسبة لقلّة عدد افراد الجيش تجاه الجموع المعادية بالقول « خندق ايها الامير وتلوم بالكراديس واعطنا الخيل نخالفهم الى قراهم وذرارهم » لكن امرهما لم يطع (٥٧) . وفي الاندلس قام يوليان حاكم سبته حليف العرب بدور المستشار لطارق بن زياد وهو الذي عين له الادلاء . اما في فتوح الشرق فيظهر ان مهمة الاشارة على القائد اصبحت وظيفة ثابتة ويسمى صاحبها « صاحب الراي » وتقدم رواية المدائني في الطبري ما يفيد في التعرف على النواحي التي تعطي هيئة المستشارين هؤلاء راياها فيها « في المعارك التي جرت مع الترك سنة ١١٢ هـ » « وكان صاحب راي خراسان في الحرب المجشر ابن مزاحم السلمي وعبد الرحمن بن صبيح الخرفي وعبيد الله بن حبيب الهجري » . وكان المجشر ينزل الناس على راياتهم ، ويضع المسالحي ليس لاحد مثل رايه وكان عبيد الله على تعبئة القتال . وكان رجال من الموالي مثل هؤلاء في الراي والمشورة والعلم بالحرب ، فمنهم الفضل بن بسام مولى بني ليث وعبدالله بن ابي عبدالله مولى بني سليم والبختري بن مجاهد مولى بني شيبان (٥٨) وهذا يعني انهم يقومون بأعمال عدة منها تنظيم الكتائب وتأمين الحماية حول الجيش وتعبئة الجيش للقتال وتقديم الخطط للخلاص من المآزق . وهناك حوادث اخرى تدل على انهم يشيرون في نواح اخرى ؛ فعندما اراد القائد السير نحو سمرقند سأل اي طريق يسلك من الطريقين السهلي والجبلي أشار المجشر الى الطريق الاول بما تضعه الرواية على لسانه « فيه الشجر والحشيش ولم يزرع منذ سنين ، فقد تراكم بعضه على بعض ، فان لقيت خاقان احرق ذلك كله فقلتنا بالنار والدخان ولكن خذ طريق العقبة » . كما كانوا يستشارون في اتخاذ القرار الحاسم حول دخول المعركة والامتناع عن ذلك ، وكانوا يعطون رأيهم بناء على المعطيات التي يعرفونها عن العدو . وقد قدموا النصيح للقائد بأن لايقدم على دخول معركة مالم يتوفر له خمسين الفا لان الاتراك يحاربون خيالة ليس صفاء ولا زحفا ولا يمكن مجابتهم الا بجيش كبير .

وترافق الجيش عناصر ليست في الاصل ذات مهمات حربية وفي مقدمة هؤلاء التجار اذ ترد اشارات متعددة لخروجهم وكان هؤلاء يقومون بفتح الاسواق كي يتجهز منها الجند ، ومن الامثلة عليها مايرد عن الاشعث اثناء الاستعداد لمحاربة رتبيل ، اذ خطب فيهم يحثهم على الالتحاق بالحرب والخروج لمعسكرهم مع الناس حيث « عسكر الناس كلهم في معسكرهم ووضعت لهم الاسواق واخذ الناس بالجهاز والهيئة بألة الحرب » . كما كان مع الجيش قاص وقاض وقارئ . فعندما برز الجيش العربي الاسلامي لموقعة اليرموك كان القاضي ابو الدرداء والقاص ابو سفيان ويظهر ان القاص كان بمثابة واعظ يعظ الناس ويحضهم على الجهاد ، اذ يرد في رواية لسيف يوردها الطبري ان القاص كان عشية المعركة يسير فيقف على الكراديس فيقول الله الله انكم زادة العرب وانصار الاسلام وانهم زادة الروم وانصار الشرك ، اللهم ان هذا يوم من ايامك، اللهم انزل نصرك على عبادك . وتصف رواية اخرى عن نفس الموقعة ان « القارئ كان المقداد ومن السنة التي سن رسول الله (ص) بعد بدر ان تقرا سورة الجهاد عند اللقاء وهي الانفال ولم يزل الناس بعد ذلك على ذلك » (٦٠) .

رافق الجيش اضافة للسابقين النسوة ، ففي معارك العراق الاولى كن على مسافة من الجيش واوكلت قوة خيالة بحمايتهن . وعدا المهمة التي كن يقمن بها في منذ ايام الجاهلية في اثارة النخوة لدى الرجال المحاربين قمن بمهمات مساعدة للجيش فبعد اليوم الاول من معركة القادسية أمر سعد بنقل الشهداء والريث الى خلف الصفوف « فاما الرثيث فأسلم الى النساء يقمن عليه الى قضاء الله عز وجل عليهم ، وأما الشهداء فدفنهم هناك » كما عملت النسوة والصبيان بحفر القبور في يومي اغواث وارماث . وعندما يتعرض للهجوم كن يدافعن عن أنفسهن ، وعندما تتوفر الحماسة لدى بعضهن كن يقمن في بعض الحالات خلال فترة الفتوح الاولى بمساعدة الرجال في الحرب ، فثناء المجابهة بين العرب والفرس في جبهات ميسان قالت « أردة بنت الحارث بن كلة ، لو لحقنا بالمسلمين فكنا معهم فاعتقدت لواء من خمارها واتخذ النساء من خمرهن رايات ، وخرجن يردن المسلمين فانتبهن اليهم والمشركون يقاتلون فلما رأى المشركون الرايات ظنوا أن الامدادات بدأت تصل للمسلمين فانكشفوا » . واستمرت مرافقة النساء في العهد الاموي كما يقول البلاذري انه « كانت بنو امية تفعل ذلك ارادة الجد في القتال للغيرة على الحرم » . واستمر الامر على ذلك حتى وقت متأخر من العصر الاموي لدرجة انهن تعرضن لخطر اثناء حروب قتيبة الترك « وأثناء غزو بخارى تراجع المسلمون وركبهم المشركون فحطموهم

حتى دخلوا في عسكر قتيبة وجاوزوه حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكين » .
وبعدها منع أسد بن عبد الله في المنطقة نفسها من اصطحاب النساء ونادى
مناديه « برئت ذمة الله من رجل حمل امرأة ممن كان من الجند » .

خطط الجيش وطريقته في المعارك :

التأهب والاستطلاع :

قبل مسير الجيش كان القائد يقوم في جملة ما يقوم به بالاهتمام بتجهيز
الجند لأنفسهم ، وتنظيم الاستطلاع . وقد وصل اهتمام بعض القادة بأمر
تجهيزات الجند الى الأشياء الصغيرة كما هو حال كثير بن شهاب صاحب الري
وقزوين الذي عينه المفيرة بن شعبة والي الكوفة من قبل عمر بن الخطاب
ويقول عنه البلاذري أنه « كان اذا غزا أخذ كل امرئ ممن معه بترس ودرع
وبيضة ومسلّة وخمس ابر وخيوط كتان وبمخفف ومقراض ومخلّة وتليسة » (٦٢) .

اما الاستطلاع فكانت له حسب شهادة النصوص اشكاله المختلفة بحسب
الوضع فعند الاستعداد للدخول في معركة كانت ترسل جماعات تقوم بالاغارة
وتأسر رجلاً من عليّة القوم اذا امكنها لمعرفته بالالوضاع العامة اكثر من غيره .
لكن الاستطلاع الاصعب والادق كان في بلاد ما وراء النهر ومع الترك السريعي
الحركة الذين يهاجمون بغتة وعلى الخيول وليس زحفاً لذا كان الاستطلاع هنا
لتعيين مكان تواجدهم على مسافات بعيدة .

وقد سلك قتيبة في هذا المجال طريقة يأمن معها شر تقاعس الطليعة
المستطلعة عن اداء واجبها والكذب عليه لذا اختار نوعيتها وحدد عملها بطريقة
ملائمة يوردها لنا الطبري بالقول « وكان يبعث في الطلائع الفرسان من الاشراف
ويبعث معهم رجالاً من العجم ممن يستنصع على تلك الهجن ، وكان اذا بعث
بطليعة أمر بلوح فنقش ، ثم يشقه شقين فيعطيهما شقة ويحتبس شقة لثلاث
مثلاً ، ويأمر القائد بأن يدفنها في موضع يصفه له من مخاضة معروفة او تحت
شجرة معلومة او خربه ثم يبعث بعده من يستبريها ليعلم اصادق في طليعته ام لا » .
وسلك قائد آخر طريقة أخرى لمعرفة الاخبار بسرعة ، اذ سرح عشرة من طلائع
الجند وأمر قائدهم بأن يرسل اليه احد الافراد كلما سار مرحلة (مسيرة يوم)
كي يعلمه الخبر (٦٣) .

بعد استكمال الالهة يتوجه الجيش نحو المعركة ولدينا وصف لشكل السير
في ايام سعد بن ابي وقاص في فتح العراق يرد فيه انه « في السير كان امراء

التعبئة (أي قادة الاقسام الاساسية) يلون الامير والذين يلون امراء الاعشار والذين يلون امراء الاعشار اصحاب الرايات والقواد ورؤوس القبائل . وقد تعددت اشكال المعارك التي خاضها العرب في هذه الفترة بين معركة في ارض مكشوفة ، قد تكون بين جيشين متكافئين نسبياً أو بين فئة قليلة وجيش عرمرم وقد تكون حرب حصار للمدن والحصون .

الحرب في الارض المكشوفة :

عندما يكون العرب على تعبئتهم استعداداً للحرب يعلن القائد الهجوم بالتكبير أو بهز اللواء ، فالمنى بن حارثة حدد اشارة الهجوم بالقول « اني مكبر ثلاثاً فتهيأوا ثم احملوا مع الرابعة . وكذلك جعل سعد بن ابي وقاص التكبير الرابعة علامة الهجوم كما يذكر لنا سيف في الطبري « لا تحركوا شيئاً حتى تصلوا الظهر فاذا صليتم الظهر فاني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا . ثم اذا سمعتم الثانية فكبروا ولتستتم عدتكم ثم اذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشط فرسانكم الناس ليرزوا وليطاردوا فاذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم ، وقولوا : لا حول ولا قوة الا بالله » (١٤) .

اما النعمان في موقعة نهاوند فقد جعل الاشارة هز اللواء وقد اخبر جنده « اني هاز لوائي ثلاث مرات ، فأما اول هزة فليقض الرجل حاجته وليتوضأ ، واما الثانية فلينظر الرجل الى شسعه ويلزم سلاحه فاذا هزرت الثالثة فاحملوا ولا يلوين احد على احد » (١٥) .

وقبل التجديد الذي أدخله مروان بن محمد كانوا يتقدمون للحرب صفوفاً يختلف عددها من معركة لآخرى ومن زمن لآخر . ففي يوم القادسية عندما كان الفرس ثلاثة عشر صفاً كان المسلمون في ثلاثة صفوف ، بينما كانت صفوف ابن الاشعث في مواجهته للحجاج سنة ٨٢ هـ سبعة . كما كانت الاسلحة تتباين بتتابع الصفوف ففي اليوم الاخير من معركة القادسية كان الصف الاول من الرجلة اصحاب الرماح والسيوف وصف فيه المرامية وصف فيه الخيول تكنفهم رجالة وكذلك الميمنة وكذلك الميسرة (١٦) . وفي موقعة صفين نجد الصفوف تتباين بتباين اقسام الجيش بين الميمنة والميسرة فقد كان كل من جيش معاوية وجيش علي سبعة صفوف ؛ صفين في الميمنة وصفين في الميسرة وثلاثة صفوف في القلب (١٧) .

كانت هذه الطريقة تتبع في مواجهة جيوش مكافئة ، لكن الوضع يختلف عندما تواجه جماعة صغيرة أو جيش قليل جيشاً كبيراً ، ولدينا على هذا مثالان

أحدهما على الصعيد النظري والآخر على الصعيد العملي . فقد أشار زفر بن الحارث الكلابي على التوايين المتوجهين نحو الجزيرة لمحاربة الامويين سنة ٦٥هـ بأن يحاربوهم بطريقة معينة يصفها أبو مخنف على لسانه وبأقوال ينسبها اليه « فان بدرتموهم الى عين الوردة فلا تقاتلوهم في فضاء وترامونهم وتطاعنوهم فانه ليس لكم مثل عددهم ، فان استهدفتم لهم لم يلبثوكم ان يصرعوكم ، ولا تصفوا لهم حين تلقونهم ، فاني لا ارى معكم رجالة ولا اراكم كلكم الا فرساناً ، والقوم لاقوكم بالرجال والفرسان ، فالفرسان تحمي رجالها والرجال تحمي فرسانها وانتم ليس لكم رجال تحمي فرسانكم فالقوهم في الكتائب والمقانب ثم بثوها بين ميمنتهم وميسرتهم ، واجعلوا مع كل كتيبة كتيبة الى جانبها فان حمل على احدى الكتبيتين ترجلت الاخرى فنفست عنها الخيل والرجال ، ومتى ما شئت كتيبة ارتفعت ومتى ما شئت كتيبة انحطت ولو كنتم في صف واحد فزحفت اليكم الرجال فدفعتم عن الصف انتقض وكانت الهزيمة » (٦٨) .

وقد طبقت جماعات الخوارج المؤلفة من اعداد صغيرة من الخيالة هذا الاسلوب في الحرب سواء في حالة الهجوم او الدفاع ؛ ففي المعركة التي جرت بين جيش للحجاج يقوده الجزل وهو عثمان بن سعيد ويتألف من اربعة آلاف رجل عام ٧٦ هـ ضد شبيب الخارجي الذي بلغت عدة رجاله مائة وستين ، صار هذا الاخير يتهرب حتى نزل الجيش في موقع ، وعندنا قسم رجاله الى اربع كتائب تتألف كل منها من اربعين رجلاً انقضوا على الجيش من الجهات الاربع .

وهناك من الامثلة ما يدل على ان الجماعات الصغيرة كان لدى بعضها تصور عن الشكل العام الذي يجب ان تأخذه الحرب مع جماعات اكبر ، فقد نصح الزعيم القيسي عمر بن الحباب ابن الاشر قائدا المختار بن ابي عبيد سنة ٦٧ هـ بالاحارب الامويين حرب مطاولة بقوله « ان طالوك وماطلوك فهو خير لهم ، هم كثير اضعافكم ، وليس يطيق القليل الكثير في المطاولة » ومن هنا يفهم ان طريقة الفارات السريعة التي كان يقوم بها الخوارج وغيرهم كانت مبنية على هذا التصور (٦٩) .

اما في حالات الدفاع فتحاول الجماعات الصغيرة ان تحيط نفسها بخواجر طبيعية او صناعية لكي تجعل مجال المواجهة محدوداً وتحمي نفسها من التطويق . وهكذا قام الحسين بن علي وهو في جماعة صغيرة لا تتجاوز اثنين وثلاثين فارساً واربعين رجلاً في مواجهة الجيش الذي انفضه ضده عبيد الله بن زياد الى جعل

البيوت حيث النسوة خلفه ، ومن ورائها جعل اصحابه يأتون بقصب وحطب الى مكان وراءهم منخفض كأنه ساقية فحفروه في ساعة من الليل وجعلوه كالخندق ثم القوا فيه الحطب والقصب وقالوا : اذا عندوا علينا فقاتلونا القينا فيه النار كيلا تؤتى من ورائنا وقاتلنا القوم من وجه واحد « (٧٠) . وبعده بحوالي ثلاثين سنة كان طارق بن زياد في الاندلس يواجه وضعاً مشابهاً ، وان لم يكن على نفس الدرجة ، في مجابهة عدو متفوق عليه في العدد (١٢٠٠٠ مقابل ٤٠٠٠) وكان التفوق في عدد الخيول اكبر بكثير فلجأ لاختيار ارض مناسبة كي يستفيد من عناصرها في تجاوز اثر تفوق خصمه عليه ، وكان اختياره لموقع وادي لكه حيث حمى احد جناحيه بمرتفعات ريتين وحمى الجناح الاخر بالبحيرة مما وفر عليه تخصيص قوى في المجنبتين لحماية جناحيه ، اصف الى ذلك ان الميدان كله ضيق وفي منطقة مستنقعية الامر الذي يحد كثيراً من عمل الخيول التي يفتقر جيشه اليها وتكثر اعداها لدى اعدائه .

حرب الاماكن الحصينة :

لم يكن الفاتحون الاولون ذوي خبرة او تجربة في محاربة الحصون والمدن المسورة ، كما لم يكونوا اهل صناعة متقدمة تساعد على صنعها ، وما ساد حروبهم في السابق اسلوب الكر والفر في الغالب . وهكذا افتقروا في معاركهم الاولى الى الآلة الحربية فحاولوا التعويض عنها باللجوء لاستخدام بعض ادواتهم من بيئتهم الاولى ، اضافة لاسلحتهم الفردية مع الحيلة لتجاوز العقبات التي اعترضتهم في هذا المجال . ولعل الاستثناء الوحيد لذلك ما يروى عن الرسول (ص) من استخدام آلات الحرب اثناء حصاره للطائف سنة ٨ هـ . لكن الرواية التي ينقلها ابن هشام في هذا الصدد تبدو مضطربة تتناقض فيها التفاصيل مع الخبر العام . اذ يرد فيها « قال ابن هشام وراهم رسول الله (ص) بالمنجنيق . رمى اهل الطائف . قال ابن اسحاق حتى اذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف ، دخل نفر من اصحاب رسول الله (ص) تحت دبابة ، ثم زحفوا بها الى جدار الطائف ليخرقوه ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محمية بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، فقتلوا منهم رجالاً ، فأمر رسول الله (ص) بقطع أعناب ثقيف فوق الناس فيها يقطعون » (٧٢) .

لا يبدو التفصيل هنا منسجماً مع السياق لان المسلمين كانوا يشكون من رمي اهل الطائف لهم بالنبال عند تقدمهم نحو جدارها ويمكن اتقاؤه بالدبابة . وعلى كل حال فان استخدام اصحاب الرسول الكريم لهذه الآلات ضد الطائف لم يعط

أكله وفضل عليه قطع الاعناب كوسيلة أكثر جدوى لدفع الطائف للاستسلام . ومن جهة ثانية بقيت العملية منفردة لم يستخدمها الرسول الكريم لفتح أماكن حصينة أخرى كفتح حصون خيبر . كما أنها لم تستخدم في قتال مسلمة بل أنهم رفعوا البراء بن مالك ليصعد إلى أعلى الجدار ومنه نزل إلى الباب لفتحه للمسلمين .

استمر العرب المسلمون في عصر الخلفاء الراشدين ، وحتى خلال العصر الأموي في الشام والغرب يحاربون الحصون بالطريقة نفسها ؛ تسلق الجدران أو الدخول من باب باتفاق مع أحد البوابين أو من مداخل سرية أو قنوات المياه . وهكذا قام خالد بن الوليد في عملية فتح دمشق سنة ١٣ هـ باستخدام الوسائل التي اعتاد جنده على استعمالها في بيئتهم لتجاوز العائقين اللذين اعترضاه للفتح ؛ أولهما الخندق المائي وثانيهما الأسوار . حل المشكلة الأولى بقيام الجند بنفخ القرب وعبور الماء عليها وهو أمر اعتادوه في وديان الجزيرة العربية ، ولارتفاع السور استغل يوماً ضعفت فيه الحراسة لانشغال الناس بمناسبة اجتماعية ، وربما زاد من غفلتهم ثقفتهم بمناعة أسوارهم وقناعتهم بفقدان الآلات الحربية اللازمة لدى العرب لاختراقها أو اعتلائها . وكان خالد قد اتخذ حبالاً كهيئة السلالم وأهافاً (الوهق جبل في طرفيه أنشودة) رميت هذه الحبال على الشرافات في أعلى السور في المكان المحدد منه ، ولما علق منها وهقان تسلق القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي ، ثم لم يدعأ أحبولة إلا اثباتها بالشرف فصعد عدد من المسلمين كان كافياً للانحدار إلى الداخل وقتل حراس الباب وفتحه للمسلمين (٧٢) .

وفي سنة ٥٩ هـ وبعد فتح شمشاط في الثغور الشمالية توقف المسلمون عند حصن كمخ بقيادة صفوان بن معطل السلمي ومعه عمير بن الحباب فعلا عمير السور وجالد حتى كشف الروم وصعد المسلمون ، وبذلك كان يفخر عمير ويفخر بنو قومه . وفي فتح مصر تمكن المسلمون من اقتحام حصن بابليون بالطريقة نفسها ، إذ صعد الزبير سلماً إلى أعلى الحصن وكبر فقبه أناس وفتحوا باب الحصن (٧٤) . وأخيراً نجد أن العرب المسلمين ظلوا يتخذون وسائل مشابهة حتى وقت متأخر وفي أقصى ميادين الفتوح في الغرب ، حيث قام المولى مغيث عند فتح قرطبة بأنفاذ رجل عبر ثغرة تعرف عليها من راعي غنم إلى أعلى السور ، ثم أعطاه مغيث عمامته فتسلق عليها الرجال ، ويبدو ضعف إمكانات العرب في أدوات الحصار من ملاحظة ما تم بعد ذلك ، إذ تحصن من استطاع الهرب من الحامية في كنيسة لهم فبقي العرب على حصارهم ثلاثة شهور حتى استسلموا .

وفي حالات اخرى كان العرب المسلمون يدخلون من الابواب يشراء احد البوابين كما حصل في الاسكندرية حيث امنوا لابن بسامة البواب تحقيق رغباته (٧٦) . أو يدخلون من مسارب أرضية للمدينة يدلهم عليها من يشترون خدماته كما فعلوا في قيسارية بفلسطين ، التي حاول العرب عبثاً دخولها لمدة سبع سنين ، الامر الذي دفع بعض الرواة لاختلاق روايات تبرر هذا العجز ؛ فقالوا ان عدد المرتقة المدافعين عنها يبلغون سبعمائة الف مما سبب عجز عمرو بن العاص وابنه عن فتحها ، الذي تم لمعاوية عندما اتى يوسف اليهودي لمسكره ليلاً ودلهم على طريق في سرب فيه الماء الى حقو الرجل مقابل تأمينه مع اهله فأنفذ معاوية اناساً لذلك قاموا بفتح الابواب (٧٧) .

ومن الطرق التي استخدمها العرب المسلمون لدخول المدن دون ادوات حصار قطع الموارد الغذائية عنها من غذاء أو ماء . استخدموا الوسيلة عندما هاجموا بقيادة عياض مدينة الرها في شمال بلاد الشام في أوان الحصاد ، وعندما أمطر المدافعون عنها المهاجمين بالسهم والحجارة اضطر القائد للتراجع الى مكان بعيد عن مرماها مكثفياً بوضع روابط عليها ، ووجه سراياه الى القرى المحيطة فجمعوا منها الاطعمة والزرور فذب اليأس في قلوب المدافعين واستسلموا بعد خمسة ايام أو ستة فقط من بدء الحصار . وفي المغرب حيث كانت المدينة العظمى قرطاجنة قوية حصينة اضافة لكونها ميناء يتبع القوة البحرية المسيطرة على المتوسط آنذاك وهي بيزنطة ، الامر الذي يجعل فتحها على ايدي العرب بالغ الصعوبة لكن نقطة ضعفها تجاه المهاجمين تمثلت بالقناة التي تحمل الماء اليها من عين جوقار على مسافة خمسة ايام ويوزع فيها بواسطة منشآت متعددة اعتبرت آنذاك من الاعاجيب ، لكن امتدادها خارج المدينة الى هذه المسافات الطويلة يجعل قطع الماء عنها عملية سهلة ، وربما حصل ذلك بقيام القائد حسان ابن النعمان بكسر هذه القناة فتركها أهلها وهربوا في السفن (٧٨) .

اما في الشرق فكان الوضع مختلفاً اذ استخدمت هنا آلات حرب الحصار ولعبت دوراً فعالاً لفت انظار الاخباريين فسجلوه ووضحوا دوره . ويمكن تحليل هذا الوضع بكون الحروب المتطاولة التي خاضها العرب في الجبهة الغربية كانت مع بيزنطة القوة الغالبة في البحر والتي تعتمد على قوتها البحرية في المقام الاول وللآمد الطويلة ، أما الحروب البرية فخاضوها على أمد قصير لم يوفقوا فيه . ولم يخض العرب في بر الغرب حروباً طويلة الامد الا مع القبائل المغربية التي كانت تماثلهم في طريقة الحياة البدوية والحياة خارج المدن المسورة . اما في الشرق فكانت فارس دولة برية وجرت معارك قاسية في الطريق الى المدن

وحولها وأثناء حصارها . جرى أول استخدام للمنجنيق أثناء حصار المدائن عاصمة الفرس سنة ١٦ هـ ، فقد أقاموا على يهرسير ، الجزء السفلي منها شهرين رماهم الفرس خلالها بالمجانيق وصاروا يدبون اليهم بالدبابات ، وهنا استغل العرب أو دفعتهم الحاجة الى استغلال من كان قد استسلم لهم قبل ذلك من دهاقين الفرس ، وكان احدهم دهقان ساباط استسلم على الصلح وتأدية الجزاء للعرب وهم في طريقهم الى المدائن بعد انتصار القادسية ، فاستصنعه سعد عشرين منجنيقا نصبها على أهل يهرسير (٧٩) . واستمر استخدام المنجنيق بعد ذلك في الشرق وفي جهات ارمينيا واذربيجان على نطاق أضيق ، وربما رمزت افكار اسطورية تالية الى ظهور واستخدام المنجنيق في الشرق بالزعم أن اول من استخدم المنجنيق في العالم هو ابرهة الاجدم (٨٠) ومهما يكن من أمر نرى المنجنيق يتطور وفعاليته تزداد ودوره يبرز أكثر فأكثر في موجة الفتوحات العربية الاسلامية اواخر القرن الاول الهجري ، وخاصة في بلاد ما وراء النهر ، حيث كان قتيبة بن مسلم الباهلي يقود العمليات . ففي سنة ٩١ هـ حاصر هذا القائد ملك شومان على مقربة من بخارى ووضع على قلعة المجانيق التي اشتهر منها ما سماه الفحجاء ، وهي تسمية يدل معناها الحرفي كما هو في اللسان « امرأة فحجاء (٨١) متباعدة ما بين الساقين » على انه منجنيق أكبر من غيره . وتضيف الرواية ما يفيد بفعالية هذه المنجنيقات وخاصة الفحجاء منها ، اذ تقول « فرمى بأول حجر فاصاب الحائط ، ورمى بآخر فوق في المدينة ثم تتابعت الحجارة فوق حجر منها في مجلس الملك فأصاب رجلا فقتله ففتح القلعة عنوة (٨٢) . وفي حربه مع السند وفتح سمرقند بعد سنتين وضع قتيبة المنجنيقات عليها وأظهرت الرواية مدى فعاليتها بإيراد نقاط عدة منها انها فتحت ثلثة في الاسوار تلتها ثلثة يظهر انها كانت كبيرة الى الحد الذي اضطر السند لطلب المودة والصلح ، ورد قتيبة بأنه لا يصلحهم الا ورجاله على الثلثة ومجانيقه تخطر على رؤوسهم ومدينتهم .

اضافة لذلك استخدم قتيبة وسيلة اخرى من وسائل حروب الحصار وهي النقب سنة ٨٧ عند فتح بيكند الواقعة في نهاية مغارة تفصل بينها وبين بخارى بعد عصيانها ، فعندما بلغ ذلك قتيبة رجع اليهم وقد تحصنوا فقاتلهم شهرا ، ثم وضع العقلة في أصل المدينة (السور) فعلقوها بالخشب ، وهو يريد اذا فرغ من تعليقها ان يحرق الخشب فتهدم فسقط الحائط وهم يعلقونه فقتل اربعين من الفعللة .

كذلك برز امام العرب المسلمين في تقدمهم في الجبهة الشرقية عائق آخر عدا الاسوار وهو الحسك الذي يضعه الفرس على الطرق المؤدية الى مدينهم . حدث ذلك في وقعة جلولا عندما نثر الفرس حسك الخشب فتعطل عمل الخيل ولم يستطيع العرب التقدم الا بعد ثمانين زحفاً . ثم طور الفرس عملهم فصاروا يضعون حسك الحديد الامر الذي لم يستطع العرب تجاوزه الا بالحيلة ، اذ تظاهروا بالتراجع كي يستدرجوا الفرس ويعرفوا منهم المرات الخالية من الحسك ، وقد تم ذلك واستدرجت القوة الفارسية الى مسافة بعيدة بينما كانت قوة اسلامية كامنة تسير على الممر الخالي من الحسك نحو باب المدينة فتقف امامه حائلة بينه وبين القوة الفارسية التي ارتد عليها المتراجعون ولاذت امامهم بالفرار للوصول الى مدينتها فهوجمت من الطرفين واضطر افرادها لدخول مناطق الحسك . وخلا الممر الخالي بذلك للمسلمين كي تتقدم جموعهم من المدينة (٨٢) .

النظام المالي للجيش :-

لم يكن المحاربون الاولون ينالون غير الفنائم او بعض واردات الاراضي الزراعية ذات المردود المحدود نسبياً من اراضي الجزيرة العربية ، كما مر معنا سابقاً . وكان التوزيع ، بعد اخذ خمس الله والرسول من الفنائم ، بالسوية ، باستثناء حالة المؤلفة قلوبهم ، واستمر توزيع الوارد بجميع اشكاله بالسوية حتى ايام ابي بكر . ثم جاء عمر بن الخطاب واتسعت الفتوحات وتضخمت الواردات ، ولم تعد كما كانت في عهد ابي بكر تكفي للمعاش مما يوجب ان تكون متساوية لتساوي الحاجات الاساسية بين الناس ، بل اصحيت تفيض عنها . مما جعل عمر بن الخطاب بعد رفض تقسيم الاراضي بين المفتحين لها بل جعلها ملكاً عاماً للمسلمين يعمل بها اصحابها ويدفعون عنها خراجاً هو بمثابة اجر لها يوزع على المسلمين حسب القاعدة المعروفة والمشهورة التي يتفاوت فيها عطاء الناس حسب القرابة من رسول الله والسابقة والبلاء في الاسلام . لكن هذا العطاء يناله الجند كمحاربين ويناله آخرون . اما ما اقتصر عليهم فمنها الانفال واصلها كما يقول ابو عبيد جماع الفنائم او كل نيل يناله المسلمون من اموال اهل الحرب . وفي كلام العرب « كل احسان فعله فاعل تفضلاً من غير ان يجب ذلك عليه » وكذلك الانفال . والمشهور منه هو نفل السلب وهو ما على القتل من ثياب وسلاح بما فيه الفرس والدرع والرمح (٨٤) . اما قسمة الفنائم الاخرى فكانت على الاساس المعروف ، بأن للمقاتلة اربعة اخماس ما غنم عنوة ، وخمساً لما كسب دون ايجاف خيل ولا ركاب . وتجمع الفنائم عند نيلها لدى صاحب القبض وعملية احتجانه دون تسليمه تسمى الغلول وهي في الاصل كتمان الشخص لما

اثمن على ايصاله للآخرين ، وهو المعنى الذي يفسرها به ابن اسحاق لها من الآية الكريمة « وما كان لنبي ان يفل ومن يفلل يات بما غل يوم القيامة » اي ما كان لنبي ان يكتم الناس ما بعثه الله به اليهم عن رهبة من الناس ولا رغبة . ثم استخدمت بمعنى احتجاج الرجل الفئائم لنفسه دون ادخالها في القبض وقد شدد الرسول الكريم على تحريمها ، ويؤكد ذلك صاحب اللسان في شرحه للكلمة بقوله « والاحاديث في الغلول كثيرة » . وكانت عملية الجمع وقسمته بعد ذلك على المحاربين بعد عزل الخمس بيد موظفين بعينهما القائد ففي المدائن سنة ١٦ هـ قسم سعد دور المدائن بين الناس فأوطنوها ، والذي ولي القبض عمرو بن عمرو المزني والذي ولي القسم سلمان بن ربيعة . ولكن الوظيفتين قد تجمعان لشخص واحد كما حصل بعد جلواء فما غنم ولي قسمته سلمان بن ربيعة فكانت اليه يومئذ الاقباض والاقسام . اما مؤهلات هؤلاء الاشخاص فكانت اول الامر بسيطة على ما يظهر كما حدث عند فتح اليلة سنة ١٤ هـ ، ويورده الطبري بالقول « ولم يجدوا قاسماً يقسم بينهم فكان زياد قاسمهم ، وهو ابن اربع عشرة سنة له ذؤابة فأجروا عليه كل يوم درهمين » . لكن ضخامة الفئائم وصعوبة قسمتها فيما بعد جعلت من الضروري ان يختار لها عارف بالحساب كما فعل عمر عندما عين السائب بن الاقرع الذي تشير اليه الرواية بالقول انه كان كاتباً حاسباً .

لكن الشيء الذي بقي يمد الجند بالمرود الدائم كان العطاء الذي طور بالنسبة للجيش عند الفتوحات عندما شملت السابقة عدا عن السبق الى الاسلام البلاء في الفتوحات والسبق اليها . وهكذا نالت نساء النبي عشرة آلاف مما يعبر عن أهمية القرابة . اما حسب السابقة فقد قسم الناس على ما يظهر الى فئات كبرى وضمن كل فئة وجدت اصناف ، ويلاحظ وكان هذه التقسيمات اعتمدت الاساس الثلاثي . فالفئة الاولى فئة السابقين الى الاسلام في الفترة التي سبقت الفتوحات العظمى قسمت الى ثلاثة اصناف ؛ اهل بدر ولهم خمسة آلاف (درهم سنوياً) ثم فرض لمن بعد بدر الى الحديبية الى ان اقلع ابو بكر عن اهل الردة ثلاثة آلاف ، في ذلك من شهد الفتح وقاتل عن ابي بكر ومن ولي الايام قبل القادسية . ويأتي بعد هؤلاء مباشرة الذين شهدوا الفتوحات ، الذين ينقسمون بدورهم الى ثلاثة اصناف ؛ هناك من حضر المعارك الكبرى التي كسرت شوكة العدو مثل القادسية واليرموك . وفرض له الفان ولاهل البلاء البارع منهم الفان وخمسمائة . ويأتي بعدهم صنف تال فرض له الف ، والصنف الثالث هم الذين قدموا بعد ذلك وفيهم ثلاثة اصناف ايضاً؛ الروادف المشنى وفرض لهم خمسمائة والروادف الثلث ثلثمائة والرابع مائتان وخمسون (٨٦) . وقد دعي عطاء الالفين

وخمسائة شرف العطاء الذي حوله معاوية الى الفين (٨٧) . على ان هذه الفئات لم تكون طبقة مغلقة بل كان بالامكان انتقال جماعة كاملة من مرتبة لآخرى بسبب ضرورات معينة وقد تم ذلك منذ ايام عمر بن الخطاب كما يروي الطبري عن سيف القول بأنه « وكان اصحاب الالفين ممن شهد القادسية ثم أتى البصرة مع عتبة خمسة آلاف وكانوا بالكوفة ثلاثين ألفاً ، فألحق عمر اعدادهم من اهل البصرة من اهل البلاء في الالفين حتى ساواهم بهم (٨٨) . ويلاحظ ان اعداد من ينالون هذا العطاء الكبير في العراق كبيراً ، بصرف النظر عن مدى ايماننا بصحة هذه الارقام التي يهمنها منها نسبة من ينالون العطاء الكبير بالنسبة لافراد الجيش الآخرين ، والتي من الطبيعي ان ترتفع في العراق لكونه من مواطن الجهاد الاولى . اما الشام التي كانت من مواطن الفتح الاولى ايضاً فان عدد من ينالون العطاء الكبير فيها غير معروف وان كانت بعض المؤشرات تدل على كونه كبيراً ، فعندما قتل الضحّاك بن قيس في موقعة مرج راهط التي جرت بينه وبين مروان بن الحكم قتل « ومعه ثمانون كلهم يأخذ القطيفة لكل رجل منهم في العطاء الفان وقطيفة يعطونها مع عطائهم (٨٩) » ويبين ابن عبد الحكم ان نسبة من كان ينال شرف العطاء كان يبلغ العشر ، دون ان ندري اذا كان المقصود به مصر وحدها او على مستوى الدولة زمن معاوية اذ يقول « كان الديوان في زمان معاوية اربعين ألفاً وكان منهم اربعة آلاف من مائتين مائتين (دينار) .

لكن التطور خلال العصر الاموي سار باتجاه تعداد اكبر في المراتب وتدرج اكثر في كمية العطاء ، كما يستنتج من رواية للبلاذري يظهر فيها عبد الملك بن مروان يتحدث مع اثنين عطاء احدهما ثلاثمائة والاخر سبعمائة ، كما تطور باتجاه الخضوع لرغبة الامير مع ما يتحكم بهذه الرغبة من دوافع ، يبقى من بينها بالطبع البلاء في الحروب ، لكن الولاء للبيت الاموي والاخلاص له كان دافعاً هاماً لزيادته فقد نقل معاوية حسب قول تيوفانس بيت مال الدولة ، من الكوفة الى دمشق وزاد في عطاء اهل الشام وانقص عطاء اهل العراق (٩٠) وتدعم الرواية العربية هذا القول ، اذ يروي الطبري في احداث سنة ٨٢ هـ عن ابي مخنف ان عبد الملك عرض على اهل العراق نزع الحجاج عنهم وان يجري عليهم اعطياتهم كما تجري على اهل الشام (٩١) . ومثل هذا الامر منطقي جدير بالتصديق لما عرف عن اهل الشام من ولاء للامويين ، ومع ذلك لم تكن كل قبائلهم على نفس الدرجة من الولاء بل ان بعضهم ربط مصيره بمصيرهم خلال حقبة طويلة من ايام حكمهم كقبيلة كلب اليمانية في فلسطين ، ومن الطبيعي الا يكون عطاء هؤلاء كعطاء سائر القبائل ويذكر لنا المسعودي ما يفيد بحدوث ذلك فعلاً اذ يقول « اشترط حسان بن مالك ،

وكان رئيس قحطان وسيدها بالشام ، على مروان ما كان له من الشروط على معاوية وابنه يزيد وابنه معاوية بن يزيد : منها ان يفرض لهم لألفي رجل الفين (٩٢) . وانطلاقاً من هذا المبدأ من المنتظر ان يزيد البعض في كمية العطاء عند توليهم او عندما تزداد الحاجة للجند لآخماد ثورة او انفاذ الامر من ورطة وقد انتقل هذا التقريب بزيادة العطاء للآثرين على الدولة الذين يسيطرون على مناطق غنية كالزبيريين فقد كان مصعب يعطي أهل العراق عطاءين في كل سنة ؛ في الشتاء عطاء وفي الصيف عطاء فأحبه الناس حباً شديداً ، لكن عودة السيادة للامويين حرمت أهل العراق من ذلك فقد ورد في خطبة للحجاج « ان الزيادة التي زادكم ابن الزبير في اعطياتكم زيادة فاسق منافق ولست اجيزها » رغم أنهم وعدوا على ما يظهر من قبل عبد الملك عند الا جهاز على ابن الزبير بابقائها لهم ، لذلك تصدى للحجاج ابن الجارود قائلاً « انها ليست بزيادة فاسق منافق ولكنها زيادة أمير المؤمنين عبد الملك قد اثبتنا لنا فكذبه وتوعده » (٩٣) .

لعب الخليفة بهذا دور المانح للعطاء حسب مشيئته لجلب الاتباع وكسب الولاء لكنه استخدمه أيضاً كوسيلة ضغط لمنع التمرد ، ففي سنة ٦٠ هـ عندما تحرك اتباع الحسين بن علي في الكوفة لجأ عبيد الله بن زياد الى التهديد بالغاء عطاء كل الجماعة التي تضم اعداء للبيت الاموي ، وهكذا جاء في كتاب هذا الوالي « وايماء عريف وجد في عرافته من بقية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه الينا صلب على باب داره ، والفيت تلك العرافة من العطاء » .

ويظهر انه كان على من ينالون العطاء ان يجهزوا انفسهم بجهاز للحرب يتناسب مع المقدار الذي ينالونه . ففي زمن الحجاج كان يفرض في ثلاثمائة ففرض للحرنفش احد بني ثعلبة بن سلامان ، وكان يأخذ من فرض له بفارس جواد وسلاح شاك » . كما ان عمر بن عبد العزيز أعلن انه « لايقبل من رجل له مائة دينار الا فارس عربي ودرع وسيف ورمح ونبل » (٩٤) .

لم يكن العطاء خاصا بالجند وان كانوا غالبية من يناله ، ويشاركهم وعلى نطاق اوسع آخرون في تقاضي ما يسمى بالرزق شهريا ، وهو شيء مخصص للغذاء يقدر بحريبين حبوا شهريا للفرد وان كان الوزن الناتج عنهما قد تغير من وقت لآخر ، كما تمايزت انواع الطعام المقدم بحسب واردات المنطقة ففي الشام دخل الزيت الى جانبه . فقد روى ابن عساكر ان عمر بن الخطاب لما وصل الى الجابية ، كان من جملة ما فعله انه « دعا ابن قاطور صاحب الارض فقال : اخبرني ما يكفي الرجل من القوم في الشهر واليوم ؟ فأتى بالمدى والقسط

فقال : يكفيه هذان المديان في الشهر وقسط زيت وقسط خل فأمر عمر بمدين قمحا فطحنا ثم عجنا ثم ادمهما بقسطي زيت ، ثم اجلس عليهما ثلاثين رجلا فكان كفاف شبعهم » (٩٥) . واطافة الى الارزاق كان يدفع للجند معونة وقت الفزوات ومن الامثلة عليها ان يزيد بن معاوية دفع الى جانب عطاء سنة كاملة مائة دينار لكل من ينخرط في صفوف الجيش المتوجه ضد الثائرين في المدينة .

اما عن مواعيد الدفع فيزودنا الطبري بخبر عنها من ايام عمر يستقيه من سيف الذي يقول : « وكتب عمر الى سعد بن مالك والى عتبة بن غزوان ان يتربعا بالناس في كل حين ربيع في اطياب ارضهم وامر لهم بمعاونتهم في الربيع من كل سنة وباعطائهم في المحرم من كل سنة وبفئتهم عند طلوع الشعري في كل سنة وذلك عند ادراك الفلات » (٩٦) . ويجمع صالح العلي جملة اخبار عن عدد من الولاة والخلفاء الامويين تدل على أنهم كانوا يقدمون العطاء في المحرم لكن هذا لم يكن مطبقا من قبل الجميع كما يذكر الباحث نفسه . وبالتالي لايمكن القول بوجود قاعدة ثابتة ، فقد يعطى الجند اعطياتهم وارزاقهم عند القيام بالفزو تشجيعا لهم ، كما فعل عبد الملك بن مروان عندما عين عمر بن عبيد الله بن معمر لقتال ابي مزيك الخارجي وسمح له بأن ينتدب من شاء من اهل القطرين (البصرة والكوفة) وانتدب له من كل بلد عشرة آلاف فأخرج لهم ارزاقهم واعطياتهم فأعطوها » (٩٧) .

من ناحية اخرى نجد في اقصى الطرف الغربي تقديما للرزق على شكل مالي كالمعونة في الشرق بشكل منظم دقيق ينقله لنا المؤرخ ابن الخطيب المتأخر في الزمن كثيرا عن اوائل المؤرخين الاندلسيين ، لكننا لانستطيع الجزم بالزمن الذي وصل فيه الى هذه الدقة .

فقد كان العرب المسلمون هناك منقسمين الى فئتين ؛ الاولى هي الفاتحة التي استقرت فيما فتحته من اراض ودعي افرادها بالبلدين ، تميزا لهم عن موجة ثانية قدمت من الشام في الغالب لقمع تمرد القبائل المغربية سنة ١٢٢ هـ ، ودعي افرادها بعد بقائهم في الاندلس بالشاميين ، وهم جند معدون للفزو . وكانت لكل فئة من الفئتين طريقته في الفزو ومدته ورزقه الخاص اثناء قيامه بالعملية . فقد كان الخليفة يعقد للشاميين لواءين لواء غازيا ولواء مقيما ، وكان رزق الغازي مائتي دينار ويبقى المقيم بلا رزق ثلاثة شهور ثم يدال بنظيره من اهله او غيرهم ، ويرزق الافراد من الفزاة عند انقضاء غزوهم عشرة دنائير اذا كانوا من اقاربه بموجب الكشف الذي يقدمه صاحب اللواء ويعطى الناس على قوله

فقط تكربة لهم . اما اذا كان الغازي من غير اقارب صاحب اللواء فيرزق خمسة دنانير . اما البلديون فيعقد لهم لواءان غاز ومقيم لمدة ستة شهور ، ولا يعطى من هؤلاء الا المعقود له مائة دينار ولا ديوان لهم للعطاء ، ويمكن تفسير ذلك بأن هؤلاء تمولوا من الاراضي المفتوحة التي نزلوا بها (٩٨) .

اما عن طريقة توزيع العطاء فالأخبار متوافرة لنا عنها في العراق ومصر حيث كان من المنتظر ان يتم على اساس العشيرة ووحدة العرق والوحدة العسكرية . لكن تفاوت العدد بين العشائر وعدم استقراره بسبب استمرار الهجرة جعل التوزيع كما لاحظ العلي يتم على اساس وحدة مالية هي العرافة التي يتألف عطاؤها من مائة ألف درهم كما يقول سيف « وعرفوهم على مائة ألف درهم ، فكانت كل عرافة من القادسية خاصة ثلاثة واربعين رجلاً وثلاثاً واربعين امرأة وخمسين من العيال ... » وكل عرافة من أهل الايام عشرين رجلاً على ثلاثة آلاف وعشرين امرأة ، وكل عيل ، على مئة ألف درهم ، وكل عرافة من الرادفة الاولى ستين رجلاً وستين امرأة واربعين من العيال ممن كان رجالهم الحقوا على ألف وخمسمائة على مائة ألف درهم » (٩٩) . لكن الاوضاع لم تستقر على هذا الاساس ، اذ كانت اعداد المهاجرين تتزايد لكن كمية المال لكل عرافة وللعشائر فيها ظلت ثابتة ، مما جعل زياد بن أبيه يخير الناس بين أخذ نصف اعطياتهم وارزاقهم او ان تكفيه كل عشيرة من فيها ، فمنهم من ضم عشيرته ومنهم من طابت نفسه بنصف عطائه وارزاقه وارزاق عياله (١٠٠) .

كان العريف مسؤول التوزيع ولم يلبث ان اصبح مسؤولاً عن استنفار الجند الذين يدفع لهم الى الحرب اضافة لمسؤوليته عن الامن . ويظهر ان البعض صار يستغل وضعه فلا يميز الاموات ويتقاسم عطائه مع أهله مما كان يدفع الولاة الى اعادة التدقيق في سجلات العطاء كما فعل زياد في البصرة ، وكما ظهر بشكل واضح بمصر في عهد معاوية وولاية عمرو بن العاص ، حيث نظمت وظيفة العريف الذي تصف الرواية دقته في عمله « وكان معاوية قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب بمصر رجلاً يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول هل ولد الليلة فيكم مولود وهل نزل بكم نازل فيقال ولد لفلان غلام ولفلان جارية فيكتب اسماءهم ويقال نزل بهم رجل من أهل كذا بعياله فيسميه فاذا فرغ من القيل اتى الديوان حتى يثبت ذلك » .

وكان لموالي بعض القبائل عرفاؤهم اذ ينقل ابن ماكولا عن ابن يونس القول بأن « عبد الله بن صالح مولى قريش يعرف بمولى بسامة حضر فتح مصر ،

وكان عريف موالى قريش عمر طويلا وكان في شرف العطاء » . اكمال ، ج ١ ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ . وان عامر جمل مولى عبد الله بن يزيد بن بردع الجملي ، كان عريف موالى مذحج ، اكمال ج ٢ ، ١٢١ .

لكنه حدث على ما يظهر هنا ما حدث في أماكن أخرى من تطورات على أوضاع الناس مما جعل الولاة يعيدون التدوين عدة مرات « فأول تدوين كان بمصر على يد عمرو بن العاص ثم دون عبد العزيز ٦٥ - ٨٦ هـ ودون قرّة بن شريك ٩٠ - ٩٦ هـ التدوين الثالث ثم دون بشر بن صفوان تدوينا رابعا (١٠١) . وبعده لم يكن هناك تدوين الا التعديل الذي حدث في زمن هشام بن عبد الملك عندما وفد ابن الحجاب على هشام فسأله ان ينقل من قبائل قيس ابياتا الى مصر فأذن له هشام في الحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر (١٠٢) .

القواعد العسكرية :

عندما دخل العرب فاتحين للمنطقة المحيطة بالجزيرة العربية نزلوا فيما جلا عنه أهله في بعض البلدان كالشام مجاورين للسكنى فيمن بقي من السكان باستثناء السواحل والثغور حيث كان الجلاء عاما في بعض المواقع . أما في المناطق الداخلية حيث كان العرب يتابعون الفتح فقد نزلوا في قواعد خاصة لم تلبث ان أعمرت أو مصرت . وقد اختيرت مواقعها رغم التباعد الكبير بينها بناء على مبدأ ينسب اتخاذها للخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب واكثر النصوص دلالة عليه ما يورده ابن عبد الحكم ويقول : « ان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبنائها مفروغا منها هم أن يسكنها وقال : مساكن قد كفيناها فكتب الى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك فسأل عمر الرسول هل يحول بيني وبين المسلمين ماء قال : نعم يا أمير المؤمنين اذا جرى النيل فكتب عمر الى عمرو اني لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف ، فتحول عمرو ابن العاص من الاسكندرية الى القسطنطينية » ويروي البلاذري رواية مشابهة فيها « أن عمر بن الخطاب كتب الى سعد بن أبي وقاص وهو نازل بمداين كسرى والى عامله بالبصرة والى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية ان لاتجعلوا بيني وبينكم ماء متى أردت ان اركب اليكم راحلتي حتى اقدم عليكم قدمت » .

كذلك يعزى لعمر بن الخطاب أيضا ضمن المبدأ المتبع لبناء القواعد مراعاة مايلأنهم صحة الجند فقد كتب عمر الى سعد حسب ما يورده الطبري عن سيف « أنبئني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم ؟ فكتب اليه : ان العرب خدّدهم

(اهزلهم) وغير ألوانهم وحومة المدائن ودجلة ، فكتب اليه : ان العرب لا يوافقها الا ما وافق ابلها من البلدان ، فابعث سلمان رائدا وحذيفة - وكانا رائدي الجيش - فليرتادا منزلا برياً بحرياً ... » .

بعد اختيار الموقع يبنى المسجد ومقر الامير في الوسط ثم تقسم البقية الى قطائع ويتولى العملية اناس يوكلمهم الامير بذلك ويعينهم له فيقومون بانزال الناس في مواقعهم المحددة ، وهكذا كان على انزال البصرة ابو الجرباء عاصم بن الدلف ، احد بني غيلان بن مالك بن عمرو بن تميم . أما في القسطنطينية فقد رجع عمرو بن العاص من الاسكندرية الى موضع قسطنطينية فانضمت القبائل بعضها الى بعض وتنافسوا في المواضع فولى عمرو بن عمرو بن قحزم الخولاني وحوييل بن ناشرة المغافري وكانوا هم الذين انزلوا الناس وفصلوا بين القبائل « (١٠٦) كما تولى ذلك في الكوفة السائب بن الاقرع وابو الهياج الاسدي (١٠٧) .

وكانت المشكلة فيما يتعلق بالانزال هو مراعاة القبلية الضرورية لضمان حسن التجاور اضافة للضرورات الحربية بما ان القبيلة وحدة ، لكن الضرورات المالية في توزيع العطاء وعدم استقرار اعداد القبائل بسبب الوافدين كل ذلك ادى الى مراعاة مبادئ أخرى اضافة للقبلية ويظهر ذلك واضحاً باستعراض العملية في القواعد الثلاث .

في الكوفة التي تعني الرملة المستديرة حيث قام مركز الامير والمسجد في الوسط وزعت الخطط او المناهج الرئيسية على القبائل وفي نهاياتها خطط اصفر انزلت فيها اعشار الايام والقوادس كما حفظت اماكن للمقيمين في الثغور كي ينزلوا بها عند موافاتهم . لكن الامر لم يستقر على هذه الحال لاستمرار الهجرة ، مما ادى الى تغيير في اماكن النزول كما يقول سيف « فلما ردفهم الروادف ، البدء والثناء وكثروا عليهم ، ضيق الناس المحال فمن كانت رادفته كثيرة شخص اليهم وترك محله ومن كانت رادفته قليلة انزلوهم منازل من شخص الى رادفته لقلته اذ كانوا جيرانهم ، والا وسعوا على روادفهم وضيقوا على أنفسهم » ورشما تهم مثل هذه العملية اعدوا مناخاً لكل رادف فكان كل من يجيء سواء فيه حتى يأتوا الهياج (المسؤول عن الانزال) فيقوم في امرهم حتى يقطع لهم حيث احبوا « (١٠٨) . لكل هذه الاسباب قسم الناس الى اعشار تراعي النسب القبلي ، لكن التوازن العددي بينها لم يلبث ان اختل فعدلهم سعد الى اسباع روعيت فيها قدر الامكان ضم السبع لقبائل متقاربة نسباً بدليل انه عندما سمح له بذلك « أرسل الى قوم من نساب العرب وذوي رأيهم وعقلائهم منهم سعيد بن نمرات ومشعلة بن

نعم فعدلوهم على الاسباع وبعد مضي قرابة ثلاثين عاماً أعيد التعديل الى الارباع ايام زياد بن ابيه ولكن ظل القرب في النسب مرجعياً .

اما البصرة فينسب تمصيرها الى عتبة بن غزوان في تاريخ غير متفق عليه بين ١٤ و ١٦ هـ ، وقد بداه باقامة معسكر من الخيام والفساطيط والقصب في مكان يسمى الخريبة ، ثم توسع الى جهة منطقة مجاورة تدعى الدهناء حيث حد فيها مكاناً للمسجد الجامع وتأسست بذلك نواة البصرة . ثم توسعت هذه النواة بفعل الهجرة على نطاق واسع اليها ، خاصة بعد تحويل موارد بعض مناطق الكوفة اليها ، وادى هذا بدوره الى ازدياد اعداد من يتناولون العطاء فيها ، اضافة لقيام بعض العرفاء بابقاء من توفي حياً على سجلاتهم وشعرت الدولة ايام زياد بن ابيه بوطأة الثقل فقام هذا الوالي بالتدقيق في السجلات وحذف اسماء المتوفين ، ثم نقل من مصر العراق الى خرسان خمسين الفا مع عيالاتهم حسب قول البلاذري ، الذي تدعمه أيضاً رواية للمدائني في الطبري وتحدد ان النصف كان من البصرة ، والى زياد هذا تنسب الرواية تقسيم الجند في البصرة الى اخماس كانت اساس تعيبتهم للحرب كما يظهر في موقعة المبرد ، ويلاحظ في هذه الاخماس أيضاً مراعاة القبلية الى حدود معينة ، حتى ان خمس العالية منها كان خليطاً الى حد تغيير الخصوم له ونعت اهله بالقول « ان اهل العالية كأبل الصديق جمعت من كل اوب . كما ان عديداً من العشائر كانت في خمسها بعيدة عن اهلها ويتردد في الاخبار ذكر للعديد من الاشخاص الذين يقولون عن افراد منهم انه من قبيلة كذا لكن عداده (اي الخمس الذي ينتمي اليه) في كذا .

كانت الفسطاط القاعدة الثالثة التي انشئت في هذه الفترة واسمها مشتق من مخيم عمرو بن العاص كما تقول الرواية العربية ، الا ان كاتب مقالة « الفسطاط » في الموسوعة الاسلامية يورد ان البعض يعتقد بأنها تعريب للكلمة اليونانية الموجودة على البرديات مزدوجة اللغة والتي تعني المخيم او المعسكر . وقد بنيت على ضفة النيل الشرقية الى جانب حصن بابليون المشهور في عمليات الفتح الاسلامي لمصر . هنا نزل الجند الفاتحون ضمن خطط موزعة على القبائل ، ولم يرد في الروايات ما يفيد تنظيمها في اخماس او ارباع بل الغالب ان لكل قبيلة خطة ولها ديوانها المالي ، لكن بعض القبائل ممن لم يكن عددها كافياً لينفرد بدعوة من الديوان وكرهت ان تدعى باسم غير اسم قبيلتها وجدت حلاً موقفاً لدى عمرو بن العاص بجمعها تحت اسم لا يمت بصلة لاسم احد منها وهو الراية التي « لم ينسبها لاحد وقال يكون موقفكم تحتها فكانت لهم كالنسب الجامع وكان ديوانهم عليها . وكما دعت الضرورة المالية لهذا الجمع بين قبائل كذلك

دعت ضرورات الحرب لجمع قبائل أخرى في خطة اعطيت أيضاً اسماً جامعاً وليس اسم قبيلة وهي خطة اللفيف رغم أن لها عدة دواوين لكل قبيلة ديوان » (١٠٩) .

لم تتمصر هذه القواعد وتعمر دفعة واحدة وإنما تم ذلك بالتدرج من مدينة من الخيام الى مدينة ذات عمران ، فمدينة الكوفة حسب رواية ياقوت عن ابن عباس « أخصاصاً من قصب اذا غزوا قلعوها وتصدقوا بها فاذا عادوا بنوها فكانوا يغزون ونسأؤهم معهم » ، وحتى هذا البناء الموقت استأذنوا فيه عمر الذي تردد وقال : العسكر اجد لحربكم واذكى لكم وما احب ان اخالفكم . وعندما حصل حريق في القصب سمح لهم عمر بالبناء باللبن . كذلك كانت هذه القواعد تتطور باتجاه آخر هو التوسع تبدأ صغيرة وتكبر بالتدريج كما حصل في البصرة اذ انهم كانوا يتوسعون بالتدريج ومع توسعهم يمدون النهر الذي يستقون منه .

من ناحية أخرى لم تكن هذه القواعد على الحدود وإنما كان لها ثغور بعيدة على حدود الاعداء تتخذ كمحارس ونقاط انطلاق نحو ارض العدو . وقد كان للكوفة عند تمصيرها اربعة ثغور حسب قول سيف هي حلوان ، وماسبذان (وراء جلولاء) وقرقيسياء والموصل . وعند عودتهم من الغزو كانوا يخلفون فيها حاميات تصل الى الآلاف ، كما هو حال اهل البصرة « الذين كانوا يغزون من لم يصلح من اهل خراسان ، فاذا رجعوا خلفوا اربعة آلاف للعقبة » (١١١) .

استمرت الاحوال على هذا المنوال قرابة ثلاثين عاماً ، اذ اقيمت القواعد الثلاث في اواخر العقد الثاني من القرن الاول الهجري ، وخلالها كانت فتوحات العرب المسلمين تتوسع وغزواتهم تتعمق ، مما جعل القواعد بعيدة جداً عن ميدان العمليات في المشرق والمغرب على حد سواء . وبعد انقضائها في حوالي سنة خمسين للهجرة ، قام العرب المسلمون باقامة قواعد متقدمة ، عزت الروايات انشاءها لمبادرات فردية من القواد ، لكن التلازم الزمني في اقامتها وتوطين العرب المسلمين بها يدعو للاعتقاد بأن العملية كانت تنفيذاً لسياسة عامة للدولة . ففي المشرق يورد البلاذري أن زياد بن أبي سفيان عين على البصرة سنة ٤٥ هـ وقام بدوره بتعيين امير بن احمر المتوفى سنة ٥٥ هـ وكان اول من اسكن العرب مرو وفي السنة التالية ولى زياد الربيع بن زياد الحارثي سنة ٥١ هـ خراسان ومعه حول الخمسين الفا من اهل المصريين (الكوفة والبصرة) كما ذكرنا سابقاً . أما في المغرب فكانت الغزوات تنطلق من القسطنطينية وتخوض معارك

تنتصر في العديد منها لتحرز الجزية وتتقبل استسلام البعض ، لكنها ما ان تعود حتى ينتقض من استسلم وتتوقف الجزية ، مما يضطرهم للبدء من جديد . وفي نفس السنة التي وطن فيها العرب بمرّو ، أي سنة ٥٠ هـ ، شرع عقبة في بناء مدينة القيروان ، كما يقول ابن عذاري ، واجابه العرب الى ذلك . وقد سار في عملية البناء واختيار الموقع وفق المبدأ المنسوب لعمر بن الخطاب في بناء القواعد الاولى ، كما يستفاد مما يرويه ابن عذاري حول هذا الموضوع بقوله على لسان عقبة وجنده « فأرى لكم يا معشر المسلمين ان تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام الى آخر الدهر فاتفق الناس على ذلك وان يكون أهلها مرابطين » وقالوا : « تقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط ، فقال عقبة : اني اخاف ان يطرقتها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها ، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر مالا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون ، فلما اتفق رأيهم على ذلك قال : قربوها من السبخة فان دوابكم الابل وهي التي تحمل اثقالكم » (١١٢) .

من هذه القواعد صارت الغزوات تنطلق شرقاً وغرباً وتعمّر الحواجز المائية ، ففي الشرق مثلاً ، كانت تخرج من مرو الى آمل التي يقول عنها ياقوت الحموي انها مدينة مشهورة في غربي جيحون على طريق القاصد الى بخارى من مرو . وعند قسم من هذه المدينة يدعى آمل الشط كان العرب يعبرون جيحون الى البلاد التي عرفها العرب باسم بلاد ما وراء النهر كما فعل قتيبة في عبوره سنة ٨٧ هـ . وكانت عمليات مشابهة تجرى في الوقت نفسه في الغرب حيث وصلوا لاقصى المغرب واستقروا في قاعدة طنجة حيث اقام امير المغرب موسى ابن نصير مولاه طارقاً كحاكم لطنجة سنة ٨٥ هـ ، ومن هناك انطلق هذا الحاكم لفتح شبه جزيرة ايبيريا الاندلس ولحق به سيده حتى اتما الفتح .

الثغور البرية والبحرية :

لم تكن ثغور القواعد البرية في الشرق ثابتة على الاغلب اما في الغرب فقد كان الوضع مختلفاً اذ ان التقدم العربي الاسلامي وراء طوروس لم يتعد الهجمات ولو انها في بعض الاحيان وصلت لمحاصرة القسطنطينية ذاتها . اصف الى ذلك ان البيزنطيين ظلوا عموماً خلال القرن الاول الهجري سادة المتوسط يوزعون غاراته على شواطئ كل البلدان التي فتحها العرب المسلمون بدءاً بسواحل الشام مروراً بمصر وانتهاء بشواطئ المغرب . وكان على العرب في مواجهة هذا الامر ان يعمرو هذه المناطق لان أهلها من الروم البيزنطيين جلوا عنها ، كما تؤكد لنا الاخبار الواردة عنها كلها . فطرابلس التي فتحت أيام ولاية معاوية على

الشام ، كتب المحاصرون فيها الى ملك الروم يسألون : ان يبعث اليهم بمراكب يهربون فيها الى ما قبله فوجه اليهم بمراكب كثيرة فركبوها ليلاً وهربوا . وحصل الامر نفسه في الاسكندرية وقرطاجنة على الشاطئ الافريقي . كذلك حصل في الحدود البرية مع بيزنطة ، اذ اخليت المنطقة اما بهرب اهلها او بحمل هرقل لهم عند انسحابه ، كما خرب العمران فيها وهدمت الحصون حتى يحرم الروم العرب المسلمين من مأوي وموارد اقتصادية (١١٣) .

تجاه هذا الوضع قام العرب وخاصة على الشواطىء باتباع سياسة معينة اول الامر » انهم كلما فتحوا مدينة ظاهرة او عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها اليه من المسلمين فان حدث في شيء منها من قبل العدو حدث سربوا اليها الامداد من الداخل » ويلاحظ أن قواعدهم الاساسية كانت في الداخل حيث الاجناد في الشام وحواضرها، جند فلسطين وحاضرتهم لدثم الرملة، وجند الاردن وحاضرتهم طبرية ثم جند دمشق وحمص التي فصل عنها فيما بعد في المنطقة الشمالية أيام معاوية أو أيام ابنه يزيد قنسرين كما يقول البلاذري ، ولو ان خبر الطبري الذي يعزو العمل لمعاوية اكثر تفصيلاً وتحديداً اذ يقول عن قنسرين » كانت رستاقاً من رساتيق حمص حتى مصرها معاوية وجندها بمن ترك الكوفة والبصرة في ذلك الزمان واخذ لهم معاوية بنصيبهم من فتوح العراق واذربيجان والموصل والباب » . ويظهر أن ميدان عمليات هؤلاء الجند في الفتوح ضد اعداء المسلمين كان محدوداً لا يتعدى الهجمات في فترات متباعدة نسبياً على بيزنطة ، لذلك كانوا اداة الحكومة المركزية في الازمات كتعثر فتح أو قيام تمرد خطير كذلك الذي قام به ابن الاشعث على الحجاج ، أو تمرد القبائل المغربية في المغرب والاندلس . ونتج عن هذا الوضع الاخير انتقال نظام الاجناد الى الاندلس ذلك ان هشام بن عبد الملك عندما حدثت الثورة المغربية وقتل فيها اشراف العرب ارسل حملة من اجناد الشام من كل جند ستة الاف ومن اهل قنسرين ثلاثة آلاف فتم له سبعة وعشرون ألفاً حسب رواية صاحب الاخبار المجموعة التي يضيف لها ثلاثة آلاف من مصر ، بينما يجعل ابن عذاري بعث الشام اثني عشر ألفاً وانضم اليه اناس آخرون في الطريق حتى واجه الثائرين بثلاثين ألفاً (١١٤) . والمهم في الامر بالنسبة لموضوعنا ان قسماً من هذا الجيش الذي فشل في شمال افريقيا توطن على ارض الاندلس برزق خاص هو ثلث اموال اهل الذمة ثم انزلوا على الكور ؛ نزل جند مصر في كورتي اكشونية وباجة وجند حمص في كورتي ليلة واشبيلية وجند فلسطين في كورتي شدونة والجزيرة وجند الاردن في كوره ربه . وجند دمشق في كورة البيرة وجند قنسرين في كورة جيسان

واصبحت هذه الكور تسمى بالكور المجندة (١١٥) وصار اسم الجند النازل ببعضها علماً لها او مرادفاً لاسمها الاول كتسمية اشبيلية بحمص وغرناطة التي اوضحت قاعدة البيرة دمشق .

اضافة لهذه المهمات التي كان يقوم بها الجند كانوا ايضاً عدة للدفاع عن السواحل منهم ترسل الجنود الى الساحل في اوقات الهجوم كمدد او في الفترة التي يكون فيها البحر ملائماً للابحار فيه ويتوقع مجيء الغزوات . وقد تطورت طريقة الدفاع والوسائل المتخذة لذلك ويورد لنا البلاذري صورة للوسائل الاولى عند الفتح نقلاً عن احد الشاميين بقوله « وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة او عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها اليه من المسلمين فان حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا اليها الامداد ، فلما استخلف عثمان رضي الله عنه كتب الى معاوية يأمره بتحسين السواحل وشحنها واقطاع من ينزله اياها » ويظهر النظام في هذا الشكل الاول واضحاً في كيفية الرباط بالاماكن الساحلية التي ظلت قائمة كالاسكندرية حيث بقي فيها خلق من الروم لان المدينة كبيرة ولم تتسع السفن المائة الكبار التي كانت في مينائها عند سقوطها بيد العرب المسلمين لاكثر من ثلاثين ألفاً فبقي فيها مئتا ألف من الرجال حسب رواية ابن عبد الحكم . وقد اهتم عمر بن الخطاب بالدفاع عنها فأمر الولاة بتكشيف رابطها وعدم الفعلة عنها ، كما كان يرسل من أهل المدينة رابطة لها . وجاء بعده عثمان بن عفان ليسر على السياسة نفسها ويأمر أميرها عبد الله بن سعد بن أبي سرح بتخصيص رابطة للاسكندرية وتحديد امد اقامتها فيها بستة شهور من العام .

وفي عهد معاوية وولاية عمرو بن العاص الثانية تعدى تنظيم الدفاع الاسكندرية الى السواحل ، اذ يورد الكندي وابن الحكم القول بأن « عمرو بن العاص قطع من اصحابه لرباط الاسكندرية ربع الناس صائفة يقيمون ستة أشهر ثم تعقبهم شاتية ستة أشهر ، وخصص ربعاً للسواحل ، والنصف يقيمون معه » واستمر الاهتمام بالاسكندرية بعد وفاته ، فتجلى بتعيين حاكم خاص للمدينة مع حامية دائمة ؛ وهكذا عين عتبة بن ابي سفيان على مصر سنة ٤٣ هـ ، وعقد هذا بدوره لعلقمة على الاسكندرية مع اثني عشر ألفاً من أهل الديوان يكونون فيها رابطة ، لكن أمير الاسكندرية الجديد لم يلبث ان كتب شاكياً قلة من معه من الجند وانه يتخون على نفسه وعليهم فخرج عتبة الى الاسكندرية مرابطاً وابتنى فيها دار الامارة . ويظهر ان الخليفة احيط علماً بالشكوى ايضاً فأخبر واليه بأنه يمكن الاعتماد كاحتياطي عند الحاجة على جند فلسطين في قاعدته الرملية حيث يوجد اربعة آلاف ممسكين بأعنة خيولهم ، واطافة لذلك امدهم

بأربعة آلاف . شمل التنظيم قضية نزول الجند في المدينة ، اذ كانوا قبلاً ينزلون على البيوت الخالية حسب السبق ، ثم يتركونها عند قفولهم ، مما جعل عمراً يخشى عليها من الخراب فخص كل انسان بالمنزل الذي سبق اليه فيصبح له ولبنى ابيه ، وفرض الترميم على رومها . وبهذا ظهر نوع من الاقطاع مختلف شرعاً عن الملكية ، اذ انه حق انتفاع فقط كما يقول الفقيه يزيد بن أبي حبيب من انه لا يحل توريتها ولا بيعها ولا كرائها . اُضيف الى ذلك ان شؤون البحر أصبحت خطة خاصة عين لها « جنادة بن أمية الأزدي من الصحابة الذي شهد الفتح ثم ولي حطة البحر لمعاوية ، وفي سنة ثمان وخمسين عين لها الاكدر بن حمام احد فرسان لخم بمصر » (١١٧) .

اما على الشواطئ الشامية ، حيث اضحى قسم من موانئها مخرباً والآخر خاوياً ، فقد نظم امر الدفاع على اساس اعادة تعمير ما تخرب واعماره مع اعمار الخاوي بالجند وتجهيزه بوسائل مناسبة للدفاع وطلب الامداد . وقد بدى بذلك منذ أيام ولاية معاوية على الشام ، مع اختلاف في الروايات حول الخليفة الذي اذن له في عمل ذلك ؛ اذ يعزوه البعض الى عمر ويرجمه البعض الآخر الى عثمان وهكذا ورد له الاذن من الخليفة بعدما وصف له حال السواحل « في مرمة حصونها واقامة الحرس على مناظرها أي لاكتشاف السفن القادمة واتخاذ الموافيد لها ، وهي التي تشعل النار فيها ليلاً ويرسل الدخان منها نهاراً وذلك لطلب الامداد من الداخل . وهذا يعني انه ظهر نظام اقامة مرابطين على الساحل أو حاميات مع توفير وسائل عند الضرورة لطلب المدد من الداخل واطافة لذلك كانت ترسل ، حين ملاءمة البحر للابحار ، جماعة اضافية كما هو الحال في طرابلس اذ كان معاوية كما يقول البلاذري « يوجه في كل عام الى طرابلس جماعة كثيفة من الجند يشحنها بها ويوليها عاملاً فاذا انفلق البحر قفل وبقي العامل في جماعة منهم يسيرة » . اما العمران والترميم فقد تم في مدن وحصون عدة على الساحل الشامي فعندما فتح المسلمون الشاطئ فتحوا مدينة تعرف ببلدة على فرسخين من جيلة عنوة ثم انها خربت وجلا عنها أهلها فأنشأ معاوية بن أبي سفيان جيلة وشحنها . كما رمم عكا وصور وحصن انطربوس وعرفة وبيروت وجبيل وصيدا وظلت عملية البناء والترميم قائمة طيلة العصر الاموي وخاصة للمواقع والمدن التي يهدمها الروم في غاراتهم أيام ضعف العرب المسلمين بالفتن الداخلية .

ومن الامثلة عليها قيسارية وعسقلان اللتان اعاد عبد الملك بن مروان بناءهما . كما اعمرت هذه المدن بالناس خاصة بعد تشجيعهم بالاقطاع فيها

فقد نقل معاوية قوما من فرس بعلبك وحمص وانطاكية الى سواحل الاردن (صور وعكا) سنة اثنين واربعين . ونقل من اساوره البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص الى انطاكية حوالي السنة نفسها . وينقل البلاذري أيضا بسند طويل يعود الى معمرين لمنطقة الشاطئ قولهم « نزلنا صور والسواحل وبها جند من العرب وخلق من الروم ثم نزع اليها أهل بلدان شتى فنزلوها معنا وكذلك جميع سواحل الشام » (١١٩) .

وسار نظام الدفاع عن السواحل خطوة اوسع الى الامام عندما انتقل العرب المسلمون من تحصين السواحل الى المباشرة في انشاء الاسطول . ولم يكتفوا في هذا المجال بدور الصناعة التي ورثوها عن ايام البيزنطيين في مصر وانما اقاموا دار صناعة بعكا على شاطئ جند الاردن سنة ٤٩ هـ في عهد معاوية ثم نقلها المردانيون الى صور . وفي المغرب ، وبعد ذلك بثلاث وثلاثين سنة ، أنشأ العرب المسلمون في افريقيا اثناء ولاية حسان بن النعمان قاعدة تونس البحرية بدلا من قرطاجنة البيزنطية التي خربت ، وفي موقع قريب منها الا أنه اكثر ملائمة لكونها غير مفتوحة على البحر مباشرة مثلها بل وراء بحيرة ، وأنشأ فيها دار صناعة أمده الخليفة تحقيقا لهذا الغرض بألف قبطي حملوا من مصر مع عائلاتهم (١٢٠) .

ويمكن الاعتقاد بأن الاسطول العربي الاسلامي أضحى كبير العدد خلال هذه الفترة بناء على بعض المؤشرات منها ما يقوله ابن عبد الحكم والكندي بأن مراكب العرب المسلمين في معركة ذات الصواري سنة ٣٤ هـ كانت مائتي مركب ونيف في هذه الفترة المبكرة وقبل انشاء دور الصناعة في الشام وافريقيا . ومؤشر آخر يمكن الاعتماد عليه هو أن والي مصر حفص بن الوليد قد فرض أو ادخل في الديوان لحساب الخليفة يزيد الثالث ثلاثين ألفا من المقامضة والموالي (١٢١) وهم من العاملين في البحر الذين لم ينالوا قبلا شرف التسجيل في الديوان . ومن المعروف ان كلمة المقامضة هي التحريف العربي للمحارب عند اليونان « ماشيموس » كما ان المولى كانت مستخدمة كمرادف للنوتي التي استخدمتها العرب أيضا .

اما في المجال البري فكانت هضبة الاناضول ميدان المارك سواء في غارات العرب المتكررة أو خلال محاولاتهم لفتح القسطنطينية . ويظهر أن الروم البيزنطيين منذ انسحاب هرقل قد اخلوا المنطقة الى ما وراء طوروس وضربوا ما فيها من عمران ودمروا ماتحتوي عليه من موارد ، وخاصة طريق الممرات

بين انطاكية وطرشوس . وربما فعلوا ذلك لحرمان العرب المسلمين من اتخاذ مآوي لهم والانتفاع بموارد المنطقة . وبالتالي بقيت حدود المسلمين خرابا في هذه الجهة من انطاكية وما حولها الى ما يوازيها حتى الجزيرة ، أي كل المنطقة التي سماها الرشيد عواصم ، واضطر قادة الشواتي والصوائف اذا دخلوا بلاد الروم أن يخلفوا وراءهم جندا كثيفا الى خروجهم وذلك خوفا من هجمات عليهم من الخلف وضرب المتخلفين والمنقطعين منهم .

وفي عهد معاوية بدأ شك هذه المناطق بالحصون لتكون بمثابة مسالح ومحارس ونقاط انطلاق للمهاجمين من جهة وحماية لخطوطهم الخلفية من جهة أخرى . وتركز أكثر العمل بالتالي على البناء في منطقة مدخلي بلاد الروم البيزنطيين ، من جهة الساحل الشامي والممرات الجبلية الى جهات ساحل الاناضول الجنوبي ، بين انطاكية وطرشوس ، ثم من ناحية الفرات ، ولم تلبث المنطقة الاولى ان دعيت بالثغور الشامية ودعيت الثانية بالثغور الجزرية . تشبه المنطقة الاولى مثلاً رؤوسه في انطاكية ونهر جيجان وطرشوس . فعلى الساحل بجوار انطاكية بنيت سلوقية وعلى بعد اربعة فراسخ من انطاكية بني حصن بغراس وفي الممرات الجبلية بني حصن قطرغاس وموره وبني على نهر جيجان على اساسه القديم حصن المصيصة الكبير سنة ٨٤ هـ وتجاوزته العرب المسلمون ليبثوا في عهد مروان بن محمد شرق جيجان حصن الخصوص . وفي المنطقة الثانية ، منطقة ثغور الجزيرة بنيت شمشاط وملطية . ثم توغلوا أكثر نحو الداخل فبنوا حصن طراند على مسيرة ثلاثة ايام من ملطية .

اقيمت هذه الحصون باعتبارها محارس حاميات من الرجال ، فقد اقام هشام في حصن مورة اربعين رجلا من جماعة الجراجمة وفي بغراس خمسين ، بينما أسكن عبد الله بن عبد الملك في حصن المصيصة جماعة كبيرة من الجند بلغ عدد المختارين منهم من ذوي البأس والشدة ثلاثمائة رجل ، ثم جاء مروان ابن محمد فانزل الخصوص فرسا وصقالية وانباطا نصارى مما يوحى بكثرة العدد ايضا . ومما يلاحظ في توزيع الجند على الحصون ان عدد الجند في حصون الطريق قليل بينما يتضخم في الحصون الواقعة في منطقة التماس مع العدو .

عدا عن الهجمات الكبرى الموجهة ضد القسطنطينية كان العرب يقومون بغارات دورية سنوية تقريبا على البيزنطيين سميت بالصوائف والشواتي ويسمى البلاذري القوة المهاجمة احيانا باسم الطوالع التي تأتي من القاعدة الرئيسية المجاورة للحدود ، وذلك من معرض حديثه عن المصيصة ، حيث يذكر ايضا ان

عدد « من كان يطلع اليها الف وخمسمائة الى الفين » . بينما يسجل لنا ابن عساكر وهو متأخر رواية منقولة عن احد المشاركين فيها زمن معاوية يصف طريقتهم في الغارات ويقول انهم ينقسمون الى فرق عندما ينزلون في اراضي البيزنطيين فقسم للحراسة والدفاع وقسم للاغارة مع تأمين الاتصال بين الجميع (١٢٢) .

ويقدم لنا الكاتب قدامة بن جعفر الزمن الذي تقوم به هذه الغارات التي تسمى بالشواتي والصوائف فيجعل الصوائف حملتين والشواتي حملة واحدة . تقوم حملة الصوائف الاولى في اواسط مايو العجمي او مايس عندما تكون الخيول قد سمت ولمدة ثلاثين يوما تتابع فيها الرعي في الارض البيزنطية وبعدها يرتاح المسلمون شهرا ليتابعوا الغزو بعد ذلك لمدة شهر آخر . وبهذا يكون المجموع ستين يوما . اما حملة الشواتي الوحيدة فتبدأ اواخر شباط الى اوائل آذار (١٢٣) ، اي لاتستمر اكثر من عشرين يوما . لكن الاخبار التاريخية التي يوردها البلاذري لا تؤيد هذه القواعد النظرية فعند الحديث عن ملطية من الثغور الجزرية يقول : « وكانت تأنيها طالعة من جند الجزيرة في الصيف فيقومون بها الى أن ينزل الشتاء وتسقط الثلوج » وعند حديثه عن المصيصة في الثغور الشامية يقول : « وكانت الطوالع من انطاكية تطلع عليها في كل عام فتشتو بها ثم تنصرف ... » وهذا يعني ان العملية حسب وصف البلاذري تكاد تنطبق على الفصول . كما انه يفهم من اقوال البلاذري شيء آخر وهو ان كل ثغر مختص بفصل للغزو فالصوائف تتوجه الى ثغور الجزيرة والشواتي الى ثغور الشام ، ويؤكد هذا المعنى في مكان آخر عندما يشير الى ملطية « بأنها كانت طريق الصوائف » . ربما تكون دلالات البلاذري مقصودة وصحيحة ويمكن تبريرها بقسوة الشتاء في أعالي الفرات داخل الاناضول اي في منطقة الثغور الجزرية ، وكونه محتملا اكثر في الثغور الشامية القريبة من البحر نسبيا .

لعل آخر ما يمكن الحديث عنه فيما يتعلق بنظام الثغور قضية ترغيب الناس بسكنائها وربطهم بالارض بها ، فقد لجأ الامويون الى منح الاقطاعات في بعضها وفي بعضها الآخر يحلون واردها ينفق على القائمين بها ولو كان ملكا خاصا مثل بغراس التي كانت ملكا لمسلمة بن عبد الملك ووقفها على سبيل البر (١٢٥) ، وفي أماكن اخرى كسلوقية حصن انطاكية على البحر (اعطيت الارض مقابل مبالغ بسيطة) اذ صير الفلثر (وحدة للمساحة تقابل الفدان أو الجريب) بدينار ومدي قمح . وعندما فتحت الاندلس في وقت متأخر من هذا العصر حدث ما يدل على أن مفهوم تقديم أو اقطاع الارض في الثغور للناس أمرا مقبولا ومعتادا ومفهوما سائدا . اذ سقطت أراضيها عنوة في الغالب فلم تخمس كما فعل

الرسول الكريم فيما فتح ، كما لم تقرر لجميع المسلمين كما فعل عمر .
يضاف الى ذلك أن هناك أراضى خالية هرب منها اصحابها من النبلاء ورجال
الكنيسة الكبار ، أو قتلوا ، وهي تشكل نسبة واسعة من الأرض ، كما أن بعض
الأراضى سقطت صلحا . ومع كل ذلك عامل موسى بن نصير ولمصلحة المحاربين
جميع الأراضى معاملة الغنيمة وحاول أخذ الخمس فأخذه من السبي والاموال
لكنه لم يكمله من الأراضى ، وأقرهم الوليد على ما بأيديهم باعتبارها نفرا . وعند
تولي عمر بن عبد العزيز أرسل السماح بن مالك الخولاني ليقوم بتمييز أرض
العنوة عن أرض الصلح ليصح التخميس فلجأ المالكون الى تعلقهم المعروفة وهي
الرغبة في ترك أراضى الاندلس والعودة للمشرق فأقرهم عمر على ما بأيديهم وعلى
ما سجله لهم الوليد وموسى بن نصير وأمر واليه بأن يقر القرى بأيدي
أربابها (١٢٦) .

نظرة عامة واستنتاج

باستعراض ما مر يتبين لنا أن قضية التنظيم العسكري في الحضارة العربية
الاسلامية مثلها مثل سائر قضايا هذه الحضارة تحتوي على عناصر أربعة ،
عربي جاهلي واسلامي ، واقتباس عن الآخرين مع ابتكار ذاتي مستجيب ومنسجم
مع تطور الظروف الموضوعية التي كان العرب يمرون بها . وهكذا رأينا القبيلة
أو العشيرة وحدة المجتمع الجاهلي تستمر في البقاء وبقوة متفاوتة حسب الزمان
والموقع ، اذ تظهر على شكل وحدة عسكرية أو مالية وحتى سكنية في بعض
الاحيان . وعندما تدمج لفايات عسكرية أو مالية في تنظيمات أكبر لا تذوب وانما
تبقى عنصراً مكوناً وبارزاً في هذه التنظيمات . كما أن العادات القبلية بقيت ظاهرة
على مستوى بعض العادات كعادة الانتماء عند احتدام المعركة أو التقدم للاشتباك
قبلها كقولهم انا الفتى الشامي وانا الغلام الشاكري . يأتي العنصر الاسلامي
ليعطي للنظام العسكري الغاية المثالية أو الانسانية لعمله ، فالحرب ليست غاية
وانما السلام هو الهدف وهو القاعدة الثابتة التي لا يجب تجاوزها أو الخروج
عنها الا لهدف مثالي نبيل ، وهل هناك اسمى من تأمين حرية نشر رسالة الاسلام
وتبليغ أمر الله ؟ وفي الوقت نفسه حوى الاسلام تشريعا تضمن في جملة ما تضمنه
تنظيما كاملا للعملية بدءاً من القتال وانتهاء بتوزيع الفنائم . أما الاقتباس فيظهر
واضحا جليا ومباشرا في صناعة آلات حرب الحصار ، وسار مع الاقتباس جنباً
الى جنب التطور الذاتي والابتكار على شكل استجابة ناجحة لمتطلبات التطور في
الظروف الموضوعية كما حدث عندما تطور الجيش تطوراً كبيراً ، من

جيش جماعة الى جيش ما يشبه القبيلة ثم الى مجموعات جيوش القبائل بكل ما توفره من اعداد لكن التطور الكيفي بقي متخلفا حتى أصبح خطرا مهددا عند مواجهة جيوش الامبراطوريتين الكبيرتين فارس والروم البيزنطيين ، وتم حينذاك العمل المنسوب لخالد والذي كون من مجموعة الجيوش جيشا واحدا وقدم بالتالي مثالا على التطوير والابتكار المتلائم مع التغير في الظروف الموضوعية .

من ناحية ثانية يبدو التطور في مظاهر التنظيم العسكري سريعا بالقياس الى الوتائر البطيئة للتطور في مجالات الحياة المختلفة لتلك العصور ، وذلك فيما لو قارنا بين البداية والاولج وبينهما مدة لاتتجاوز الخمسين سنة في كثير من الاحيان ، سواء على صعيد العدد او على صعيد الآلات والعدد ، ويكفي لبيان الفارق على الصعيد الاول تذكر القفزة الواسعة في العدد بين محاربين لا يتجاوزون العشرات الى جيش كبير يعد بمئات الالوف . وعلى الصعيد الثاني صعيد الالة الحربية والعدد يكفي استعادة صورة اولئك الرجال الذين كانوا يجهدون خلال حروب الردة امام حائط حديقة الموت كي يرفعوا بعضهم على اكتاف بعض ليصل آخريهم بعد محاولات عدة فاشلة الى أعلاه ويقفز منه ليفتح الباب لرفاقه ، ومقارنة هذه الصورة مع صورة جيش قتيبة بن مسلم الباهلي وهو يدك بمنجنيقاته عن بعد سور مدينة ليفتح فيها ثغرة تلو ثغرة وعندما يطلب منه حكام المدينة استمهالهم ليلة واحدة كي يستسلموا او يوقف الضرب يجيبهم بما يشتم عنه الزهو والفخر والثقة بفعالية اسلحته بأنه لايقبل الا بوقوف جنده على الثغرة وان تبقى منجنيقاته تخطر فوق رؤوسهم .

اضافة لهذا التطور والتنظيم في التفاصيل نلمح تنظيما على المستوى العام والشامل . فهناك ، على سبيل المثال ، قواعد للجيش تنطلق منها الفتوحات وعندما تبتعد عنها الحدود كثيرا تقدم القواعد الى الامام في الشرق والغرب بآن واحد . وتميز الحدود عن بقية اراضي الدولة وتسود بالنسبة لها اعتبارات واحدة في كل الامكنة كاعطاء المحاربين عليها والمقيمين فيها تسهيلات في ملكية الارض او الانتفاع ، من حدود الشام مع الروم البيزنطيين الى الاندلس ثغر العرب المسلمين وحدودهم مع الجلافة والفرنجة . وعلى حدود البحر ايضا يسود نظام موحد للدفاع عن الشواطئ وتقام المنشآت لصنع القطع البحرية في كل شاطئ عندما تتوفر الوسائل اللازمة لذلك وبالتعاون بين أجزاء الدولة الواحدة .

واخيرا توفر مفردات الوقائع التي اوردناها امكانية تبين شيء من سوء التقييم لهذه الفترة والتقليل من قيمة واهمية التطورات التي حدثت فيها سواء

على مستوى التفاصيل أو على مستوى التنظيم العام ، وذلك ضمن أبحاث ومقالات حديثة منشورة في دوريات أو في الموسوعة الإسلامية الثانية . كتقدير البعض بأن عدد أفراد الجيش في أوج فترة التوسع لم يتجاوز المائة ألف رغم ان أكثر التقديرات اقلالا سواء في روايات المؤرخين أو فيما تعكسه الاحداث تقفز بهذا الرقم الى الضعف . وفي مجال الحديث عن استخدام العرب للآلات الحربية في حروب الحصار يؤخر البعض استخدامها الى زمن الحروب الصليبية عندما تأثر العرب بالصليبيين . وفي مجال التقييم العام يقدم باحث آخر حكماً عاماً يقول بأن الجيش المنظم بالمعنى الدقيق للكلمة لم يظهر الا في العصر العباسي، مما يطرح تساؤلات عدة ، منها اذ لم يكن كل ماتم في الفترة مجال البحث نظاماً وتنظيماً فما معنى النظام والتنظيم ؟ ثم هل حدث انقطاع في تاريخ العرب كأمة عند انتقال الحكم من الامويين الى العباسيين ؟ واذا كان الامر كذلك كيف ظهر النظام والتنظيم وخلق فجأة ، واذا لم يكن الامر كذلك اليس من الاصح القول ان التنظيم العسكري خطأ في ظل العباسيين خطوات الى الامام بعد ما سار شوطاً على هذا الطريق قبلهم .

- (١) ابن سيدة ، المخصص ، ج ٦ ، ص ٢٠٤ . ابن حبيب ، المحبر ، ص ١٣٢ - ١٣٣ . ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ .
- (٢) سورة الحج ، آية ٣٩ - ٤٠ .
- (٣) سورة البقرة ، آية ١٩٠ .
- (٤) دروزة ، الجهاد في سبيل الله في القرآن والحديث ، دمشق ١٩٧٥ ، ص ٥٨ - ٦٠ .
- (٥) ابن رشد ، بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، ط بيروت ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ . التاج ج ٤ ، ص ٣٠٥ .
- (٦) بداية المجتهد ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .
- (٧) المصدر السابق ص ٢٤٤ .
- (٨) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ .
- (٩) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، الطبعة الثالثة ، مصر ١٩٧٣ ، ص ٥٢ - ٥٣ .
- (١٠) البلاذري ، فتوح ، ص ٧٥ - ٧٦ .
- (١١) المصدر السابق ، ص ٢٣٨ .
- (١٢) ابن هشام ، السيرة ، الطبعة الثانية ، مصر ١٩٥٥ ، ج ٢ ، ص ٦٤ .
- (١٣) بداية المجتهد ، ص ٢٤٣ .
- (١٤) الطبري ، ج ٣ ، ص ١١ .
- (١٥) ياقوت الحموي ، المعجم ، مادة : نهر الاساورة .
- (١٦) البلاذري ، فتوح ، ص ٣٦٦ - ٣٦٩ .

- (١٧) المقرئ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٩٨ . رغم أن المقرئ من رجال القرن التاسع ومتأخر عن الأحداث لكنه يستقي هذه المعلومات من متقدمين كالقضاعي والكندي المتوفى على ما يروى حوالي منتصف القرن الرابع الهجري ، وقد اشتهر بمعرفته بأحوال مصر وله كتب كثيرة عنها منها كتاب عن الخطط . وانظر كذلك ، ابن ماكولا ، الاكمال ، ج ٤ ص ٣٨٦ .
- (١٨) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٠٩ ، ٢١١ .
- (١٩) الطبري ، ج ٤ ، ص ١٥٥ .
- (٢٠) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٥٧ .
- (٢١) رواية المدائني في المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٤٧٤ .
- (٢٢) المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٤٧٥ .
- (٢٣) ابن عذاري ، البيان المغرب ، طبعة بروكسل ، ج ١ ، ص ٣٧ - ٣٨ . ابن خلدون ، المعبر ، طبعة بولاق الصورة ، ج ٧ ، ص ٩١ . المالكي ، رياض النفوس ، ص ٣٣ - ٣٤ .
- (٢٤) ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ٤٢ - ٤٣ .
- (٢٥) رواية ابن حبان في الفتح ، ج ٢ ، ص ٣٦ . الاخبار المجموعة ، ص ١٠٩ .
- (٢٦) الترشخي ، تاريخ بخارى ، طبعة دار المعارف ، ص ٦٢ .
- (٢٧) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ط ٣ ، ١٩٦٣ ، ص ٨٥ .
- (٢٨) الترشخي ، ص ٦٥ .
- (٢٩) ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٦٤ .
- (٣٠) البلاذري ، فتوح ص ٣٩ - ٤٢ .
- (٣١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٠٢ .
- (٣٢) الطبري ، ج ٤ ، ص ٥٠٦ .
- (٣٣) ابو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ، سلسلة تراثنا ، ص ٢١٢ - ٢١٣ .
- (٣٤) الطبري ، ج ٧ ، ص ٣٣ .
- (٣٥) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٩٩ .
- (٣٦) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٠٤ .
- (٣٧) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٣٤ .
- (٣٨) ابن منظور ، لسان العرب المحيط ، مادة « جمالة » .
- (٣٩) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٣٤ .
- (٤٠) في المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٣٥ .
- (٤١) رواية المدائني في الطبري ، ج ٦ ، ص ٣١٤ .
- (٤٢) ابن عبد الملك ، الدليل والتكملة ، ج ٥ ، ط ١ ، ص ٢١٤ .
- (٤٣) الاخبار المجموعة ، ص ٣٢ - ٣٣ .
- (٤٤) ابن خياط ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٣٨٢ - ٣٨٣ .
- (٤٥) ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٤٠٣ - ٤٠٤ .
- (٤٦) في الطبري ، ج ٣ ، ٢٩٣ .
- (٤٧) ابن منظور ، اللسان ، مادة « سند » ومادة « كردس » .

..... التنظيم العسكري عند العرب المسلمين

- (٤٨) السعودي ، مروج الذهب .
- (٤٩) ابن الكلبي ، انساب الخيل .
- (٥٠) في الطبري ، ج ٤ ، ص ٥١ - ٥٢ .
- (٥١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٤١
- (٥٢) رواية ابي مخنف في الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٠٣ .
- (٥٣) ابو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ١٧١ - ١٧٢ .
- (٥٤) رواية المدائني في الطبري ، ج ٧ ، ص ٧٣ .
- (٥٥) الطروشني ، سراج الملوك ، ص ١٥٥ .
- (٥٦) رواية سيف في الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٤٤ - ٤٤٥ . البلاذري ، انساب ، ج ٥ ، ص ٢١٤ - ٢١٥ .
- (٥٧) أخبار مجموعة ، ص ٣١ - ٣٢ .
- (٥٨) رواية المدائني في الطبري ، ج ٧ ، ص ٧٩ ، ٧١ - ٧٢ .
- (٥٩) رواية ابي مخنف في الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٢٨ .
- (٦٠) الطبري ، ج ٧ ، ص ٣٩٧ .
- (٦١) البلاذري ، فتوح ، ١٧١ - ١٧٢ .
- (٦٢) المصدر السابق ، ص ٣١٤ .
- (٦٣) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٠٣ ، ج ٧ ، ص ٨٢ .
- (٦٤) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٦٥ و ص ٥٣٥ .
- (٦٥) السعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٢٣ .
- (٦٦) الطبري ، ج ٦ ، ص ٨٢ و ج ٣ ، ص ٥٥٩ .
- (٦٧) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٧٣ .
- (٦٨) رواية ابي مخنف في الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٩٥ - السعودي ، انساب ، ج ٥ ، ص ٢١٠ .
- (٦٩) السعودي ، انساب ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٢٤٧ . الطبري ، ج ٦ ، ص ٨٦ - ٨٧ .
- (٧٠) رواية ابن مخنف ، طبري ، ج ٥ ، ص ٤٢٢ .
- (٧١) أحمد بدر ، دراسات في تاريخ الاندلس ، ص ١٦ - ١٧ .
- (٧٢) ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٨٣ .
- (٧٣) رواية سيف في الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٣٨ ، ٤٣٩ .
- (٧٤) البلاذري ، فتوح ، ص ٦٣ .
- (٧٥) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٩ - ١٠ والمقري ، نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٢٤٥ - ٢٤٧ .
- (٧٦) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٨٠ .
- (٧٧) البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٧ .
- (٧٨) الادريسي ، طبعة دوزي ، ص ١١٢ ، الحميري ، الروض المطار ، ٤٦٢ - ٤٦٤ .
- (٧٩) رواية سيف في الطبري ، ج ٤ ، ص ٦ .
- (٨٠) الاعلاق النفيسة .

- (٨١) ابن منظور ، لسان العرب المحيط ، مادة فحج .
- (٨٢) رواية المدائني في الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٦٣ .
- (٨٣) رواية سيف في الطبري ، ج ٤ ، ص ٢٤ - ٢٦ .
- (٨٤) ابو عبيد القاسم بن سلام ، تحقيق محمد خليل هراس ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٤٢٥-٤٣٨
- (٨٥) ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ، ص ١١٧ .
- (٨٦) الطبري ، ج ٣ ، ص ٦١٣ - ٦١٩ . ابو عبيد ، الاموال ، ص ٣١٩ - ٣٢٥ .
- (٨٧) العلمي ، التنظيمات ... ، ص ١٥٢ .
- (٨٨) رواية سيف في الطبري ، ج ٤ ، ص ٧٥ .
- (٨٩) البلاذري ، انساب ، ج ٥ ، ص ١٣٦ .
- (٩٠) تيوفانيس عن ولوبون ، تاريخ الدولة العربية ، ص ١٢٦ .
- (٩١) رواية ابي مخنف في الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٤٧ .
- (٩٢) السمودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٨٦ .
- (٩٣) البلاذري ، ج ٥ ، ص ٢٨٠ . الطبري ، ج ٥ ، ص ٢١١ .
- (٩٤) العلمي ، التنظيمات
- (٩٥) ابن عساکر ، تاريخ دمشق ، تحقيق المنجد ، ج ١ ، ص ٥٥٦ .
- (٩٦) رواية سيف في الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٣ .
- (٩٧) الطبري ، ج ٥ ، ص ١٩٣ .
- (٩٨) ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق عنان ، ج ١ ، ص ١١٠ - ١١١ .
- (٩٩) رواية سيف في الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٩ .
- (١٠٠) العلمي ، التنظيمات ... ، ص ١٦٥ .
- (١٠١) المقرئ ، خطط ، ص ٩٤ .
- (١٠٢) الكندي الولاية ... ، ص ٧٦ .
- (١٠٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٩١ .
- (١٠٤) البلاذري ، فتوح ، ص ٩١ . المقرئ ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٩٦ .
- (١٠٥) رواية سيف في الطبري ، ج ٤ ، ص ٤١ .
- (١٠٦) المقرئ ، خطط ، ص ٢٩٧ .
- (١٠٧) ابن الفقيه الهمداني ، مختصر كتاب البلدان ، ص ١٦٣ .
- (١٠٨) الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٥ - ٤٦ .
- (١٠٩) المقرئ ، خطط ، ج ١ ، ص ٢٩٦ - ٢٩٨ .
- (١١٠) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة كوفة .
- (١١١) الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٩ - ٥٠ و ٣١٦ .
- (١١٢) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٩ .
- (١١٣) البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٤ - ١٣٥ و ١٤٨ - ١٤٩ .
- (١١٤) اخبار مجموعة ، ص ٣٠ - ٣١ . ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٥٤ .

..... التنقيح العسكري عند العرب المسلمين

- (١١٥) ابن الأبار ، الحلة السراء ، ص ٦١ - ٦٢ .
- (١١٦) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٨٢ .
- (١١٧) المصدر السابق ، ص ١٩٢ . الكندي ، الولاة وكتاب القضاة ص ٣٥ - ٣٦ . ابن ماكولا
الاكمال ، ج ٢ ، ص ١١٥ و ص ٥٣٠ .
- (١١٨) البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .
- (١١٩) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .
- (١٢٠) ابن أبي دينار ، المؤنس في اخبار افريقيا وتونس ،
- (١٢١) الكندي ، الولاة وكتاب القضاة ، ص ٨٤ .
- (١٢٢) ابن عساكر ، التهذيب ، ج ٦ ، ص ١٢١ و ١٢٨ .
- (١٢٣) قدامة بن جعفر ، ص ٢٥٩ .
- (١٢٤) البلاذري ، فتوح ، ص ١٦٩ و ١٨٩ .
- (١٢٥) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة بفراس .
- (١٢٦) رواية الرازي في « الرسالة الشريفة » المطبوعة كملحق لكتاب ابن القوطية افتتاح
الاندلس ، ص ٢٠٤ - ٢١١ .

* * *